الفصل الثاني
عقيدة أهل الحق في أسماء الله وصفاته

اختلفت الأمة الإسلامية كما اختلفت الأمم من قبلها في أسماء الله وصفاته ، وقد هدى الله من اصطفاهم واختارهم إلى الحق الذي اختلف فيه ، وسنحاول أن نعرّف بأهل الحقّ الذين عرفوا الحقّ واتبعوه ، ثم نبين الأسس التي قام عليها معتقدهم في هذا الباب .

المبحث الأول
التعريف بأهل الحق أهل السنة والجماعة

أهل الحق من هذه الأمة وجميع الأمم هم الذين هداهم الله إلى صراطه المستقيم ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ [1] ، والذين أنعم الله عليهم هم الذين قال الله فيهم ﴿ و من يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴾ [2] .

وهم في هذه الأمّة الذين فقهوا دين الله ، واستقاموا عليه ، وقد اصطلح على

---

(١) سورة الفاتحة : ٦-٧

(٢) سورة النساء : ٦٩

تسميتهم بأهل السّنة والجماعة ، ويسمّون أيضا بالسلف الصالح .

أمّا إنّهم أهل السنة فلأنهم أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، الذين فقهوا عنه العلم الذي جاءَهم به ، وتابعوه عليه .

وأمّا إنهم أهل الجماعة ، فلاجتماعهم على الحقّ الذي جاءهم من عند الله ، وهم في ذلك يتسمّون بما أمرهم الله به وأمرهم به رسوله صلى الله عليه وسلم من اتّباع نبيهم الكريم ، والاجتماع على الحقّ وترك الفرقة والاختلاف .

ولما كان الصحابة الكرام من المهاجرين والأنصار هم خير من مثل الإسلام فقها وعملا ، أصبح مسارهم الطريق الذي يقتدى به ، وينسج على منواله ، فهم السلف الصالح الذين عاصروا التنزيل ، وتربوا على يدي معلم البشرية محمد صلى الله عليه وسلم ، وهم أعلم هذه الأمة بالله وكتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وهم الذين شهد لهم ربّهم ـ تبارك وتعالى ـ بالخيريّة والأفضليّة على من بعدهم ، وتوفّي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راض عنهم .

وقد أصبح المنهج الذي سلكوه وساروا عليه وتمثلوه عَلَمًا على المنهج القويم الذي يجب أن يستقيم عليه من جاء بعدهم ، وقد سمّي بمذهب السلف الصالح ، وكلُّ من سلك هذا المسلك فهو على مذهب السلف الصالح .

يقول ابن بدران معرفا بأهل الحق و مذهبهم : « الفرقة الناجية هي فرقة واحدة ، وهي ما كان على نهج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه الكرام والتابعين لهم بإحسان ، من إمرار آيات الصفات وأحاديثها على ما جاءت من غير تشبيه ولاتمثيل ولا تأويل ولا تعطيل... وإلى هذا أشار الإمام أبو محمد بن حزم في كتابه«الفصل» حيث قال :«وأهل السنة هم أهل الحق ، ومن عداهم فأهل البدعة ، فإنهم الصحابة رضي الله عنهم ، وكل من سلك نهجهم من خيار التابعين رحمة الله عليهم ، ثمّ أصحاب الحديث ومن تبعهم من الفقهاء جيلا فجيلا إلى يومنا هذا ، ومن اقتدى بهم من العوام في شرق الأرض ومغربها»

ويقول السفَّاريني ـ رحمه الله تعالى ـ مبينا المراد بمذهب السلف الصالح : «مذهب السلف ماكان عليه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، وأعيان التابعين لهم بإحسان، وأتباعهم ، وأئمة الدين ممن شهد له بالإمامة ، وعرف عظيم شأنه في الدين، وتلقى الناس كلامهم خلف عن سلف ، دون من رمي ببدعة أو شهر بلقب غير مرضيّ ، مثل : الخوارج ، والروافض ، والقدريَّة ، والمرجئة ، والجبرية ، والجهمية ، والمعتزلة ، والكرامية »[1] فإذا كان السلف الصالح هم الصحابة رضوان الله عليهم، فإنَّ من جاؤوا بعدهم ، سائرين على دربهم ، حاملين منهجهم يحق لهم أن يتسمَّوا بأصحاب المنهج السَّلفي ، لاشتراكهم معهم في المنهج والسبيل .

وقد ورث علم السلف الصالح أئمة أعلام ، عرف الناس لهم فضلهم ، وأقروا لهم بالإمامة ، وأصبح مذهبهم ممثلا لمذاهب أهل العلم من قبلهم .

وقد ذكر شيخ الحرمين أبوالحسن محمد بن عبد الملك الكرجى وكان من أئمة الشافعية في كتابه الذي سمّاه : « الفصول في الأصول عن الأئمة الفحول إلزاما لذوي البدع والفضول » الأئمة وارثي علم السلف ، وهم الشافعي ، ومالك ، والثوريُّ وأحمد بن حنبل والبخاريُّ ـ صاحب الصحيح ـ وسفيان بن عيينه ، وعبدالله بن المبارك ، والأوزاعيُّ ، والليث بن سعد ، وإسحاق بن راهويه ، ونقل عنهم اعتقادهم .

وأئمة السلف أكثر من هذا بكثير ، ولكنَّه اقتصر على الأئمة الذين كانوا قدوة في عصرهم ، ولأنهم أرباب المذاهب في الجملة ، ولهم أهليَّة الاقتداء بهم لحيازتهم شروط الإمامة ، وليس من سواهم في درجتهم ، وإن كانوا أئمة كبراء قد ساروا بسيرهم[2] .

وقد ذكر اللالكائيُّ في شرحه لأصول اعتقاد أهل السنَّة جمعا كبيرا من الأعلام

---

(١) لوامع الأنوار البهية : ١/ ٢١

(٢) راجع هذه الأقوال في مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٤/ ١٧٥ - ١٧٩

الذين ساروا على منهج السّلف[1] .

وأبرز من استوعب منهج السلف وناضل عنه الإمام أحمد بن حنبل الذي حفظ الله به الدين في فتنة القول بخلق القرآن ، ولذا أصبحت متابعته على فقهه ممثّلة المنهج المرتضى المختار .

يقول أبوالحسن الأشعري : « وندين بحبِّ السلف الذين اختارهم الله لصحبة نبيه عليه السلام ، ونثني عليهم ونتولاهم »[2] .

ويقول : « قولنا الذي نقول به ، وديانتنا التي ندين بها : التمسك بكتاب ربنا ـ عز وجل ـ وسنَّة نبينا عليه السَّلام ، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول به أبو عبدالله أحمد بن حنبل ـ نضَّر الله وجهه ، ورفع درجته ، وأجزل مثوبته ـ قائلون ، ولما خالف قوله مخالفون ، لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل ، الذي أبان الله به الحقَّ ، ورفع به الضلال ، وأوضح به المنهاج ، وقمع به بدع المبتدعين ، وزيف الزائفين ، وشكَّ الشاكّين ، فرحمة الله عليه من إمام مقدَّم ، وخليل مفخم معظَّم »[3] .

ويقول السَّفاريني ـ رحمه الله تعالى ـ بعد أن عرَّف مذهب السلف الذي نقلناه عنه في أوَّل هذا المبحث مبينا السبب الذي من أجله نسب مذهب السلف إلى الإمام أحمد رحمه الله تعالى : « لما كان فشوُّ البدع وظهورها بعد المائتين لما عرِّبت الكتب العجمية ، وزاد البلاء ، وأظهر المأمون القول بخلق القرآن ، وظهر مذهب الاعتزال ظهورا لامزيد عليه بسبب انحراف الخلفاء عن مذهب الحقِّ ، وكان الذي قام في نحورهم وردِّ مقالتهم وإبطال مذهبهم وتزييفه ، وذمِّ من ذهب إليه ، أو عوَّل عليه ، أو انتمى إلى ذويه ، أو ناضل عنه ، أو مال إليه ـ الإمام المبجَّل والحبر البحر المفضَّل أبو عبد الله الإمام أحمد بن محمد بن حنبل نسب مذهب السلف إليه ، وعوَّل أهل

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة : ١/٢٩-٤٩ .

(٢) الإبانة : ص ١١

(٣) الإبانة : ص ٩

عصره من أهل الحقَ فمن بعدهم عليه .

وإلا فهو المذهب المأثور ، والحقُّ الثابت المشهور لسائر أئمة الدين وأعيان الأمة المتقدمين »[1] .

المبحث الثاني
الأسس التي تقوم عليها عقيدة أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته

مقالة السلف الصالح تقوم على عدَّة أسس وأصول كلُّها دلَّ عليها القرآن الكريم ، ومن نظر في هذه الأسس في هذا الباب اطمأن قلبه إلى أنَّ هذا المذهب هو الحقُّ الذي يجب أن يعض عليه بالنواجذ ، ويترك ما سواه .

الأساس الأول :إثبات ما أثبته الله ورسوله

السلف يثبتون لله ما أثبته الله لنفسه من صفات أو أثبته له رسوله ، وينفون عنه ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : « الأصل في باب الصفات أن يوصف بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسله نفيا وإثباتا ، فيثبت له ماأثبته لنفسه ، وينفى عنه ما نفاه عن نفسه »[2] .

ويقول أبو إسماعيل عبد الرحمن بن إسماعيل الأنصاريُّ : « أصحاب الحديث يعرفون ربهم ـــ عز وجل ـ بصفاته التي نطق بها وحيه وتنزيله ، أو شهد له بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما وردت الأخبار به ، ونقلته العدول الثقات عنه ، ويثبتون له جلَّ جلاله منها ما أثبته لنفسه في كتابه ، وعلى لسان رسول الله

---

(١) لوامع الأنوار البهية : ١/ ٢١

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٣/٣

صلى الله عليه وسلم »[1] .

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى : « آمنت بما جاء عن الله ، وبما جاء عن رسوله الله على مراد رسول صلى الله عليه وسلم »[2] .

وقال الشافعيُّ أيضا ناصًا على هذا الأصل : « للّه أسماء وصفات جاء بها كتابه ، وأخبر بها نبيُّه أمَّته ، لا يسع أحد من خلق الله قامت عليه الحجة ردها ، إلى أن قال : نحو إخبار الله سبحانه إيانا أنه سميع بصير ، وأنَّ له يدين لقوله : ﴿ بل يداه مبسوطتان ﴾ [3] . وأن له يمينا لقوله : ﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾ [4] . وأن له وجها لقوله : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ [5] . وقوله : ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ [6] . وأن له قدما لقوله صلى الله عليه وسلم : « حتى يضع الرب فيها قدمه » . « يعني جهنم »[7] .

وقال شيخ الحرمين أبوالحسن محمد بن عبد الملك الكرجي في كتابه الذي سمَّاه « الفصول في الأصول عن الأئمة الفحول إلزاما لذوي البدع والفضول » الذي ذكر فيه أقوال علماء السلف في أسماء الله وصفاته ملخصا ما قاله الأئمة في هذا الأصل:« نعتقد أنَّ لله أسماء وصفات قديمه غير مخلوقة ، جاء بها كتابه ، وأخبربها الرسول وأصحابه ، فيما رواه الثقات وصححه النقاد الأثبات ، ودلَّ القرآن المبين ، والحديث الصحيح المبين على ثبوتها .

وهي أنَّ الله تعالى أوَّل لم يزل ، وآخر لا يزال ، أحد قديم ، وصمد كريم ، عليم حليم علي عظيم ، رفيع مجيد ، وله بطش شديد ، وهو يبدئ ويعيد ، فعَّال لما يريد ،

---

(١) عقيدة السلف واصحاب الحديث للصابوني : ص ٣

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٢/٣

(٣) سورة المائدة : ٦٤

(٤) سورة الزمر : ٦٧

(٥) سورة القصص : ٨٨

(٦) سورةالرحمن : ٢٧

(٧) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ١٨٢/٤

قويّ قدير ، منيع نصير ، ﴿ ليس كمثله شيء وهوالسميع البصير ﴾ [1] إلى سائر أسمائه وصفاته من النفس ، والوجه ، والعين ، والقدم ، واليدين ، والعلم ، والنظر ، والسمع ، والبصر ، والإرادة والمشيئة ، والرضى والغضب ، والمحبَّة ، والضحك ، والعجب ، والاستحياء ، والغيرة والكراهة ، والسخط ، والقبض والبسط ، والقرب والدنو ، والفوقية والعلو ، والكلام والسلام ، والقول والنداء ، والتجلي واللقاء ، والنزول والصعود والاستواء ، وأنه تعالى في السماء ، وأنه على عرشه بائن من خلقه» [2] .

ويدلُّ على صحة هذا الأصل أمور :

الأول : أنَّ أسماء الله وصفاته غيب لا يعرف إلا من قبل الوحي الصادق ، وقد أثنى الربُّ ـ تبارك وتعالى ـ على عباده المؤمنين الذين يؤمنون بالغيب الذي أخبربه ﴿ الم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ﴾ [3] ، كما أثنى على الذين يؤمنون بماجاءهم من عند الله ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾ [4] .

الثاني : أن رد ما أثبته الله لنفسه أو الرسول لربه تكذيب لله ولرسوله ، وكيف يدَّعي مدَّع الإسلام والإيمان وهو يرد على الله خبره فيما أعلمنا به من أسمائه وصفاته ، فيخبر الباري ـ تبارك وتعالى ـ أنه الحي القيوم ، العليم الخبير الحكيم ، الملك القدوس السلام ، المؤمن المهيمن العزيز الجبارالمتكبر ، فيقف جاهل مغرور بين يدي العليم الخبير جبار السموات والأرض نافيا عن الله ما أثبته لنفسه ، فيقول بأنَّ الله ليس حيًا ولا قيُّوما ولا عليما ولا خبيرا .. الخ .

وكيف يدَّعي مدع أنه مصدِّق بما جاءه من عند الله ، وهو ينفي عن الله صفاته

---

(١) سورة الشورى : ١١

(٢) نقله عن الكرجي شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى : ٤/ ١٨١

(٣) سورة البقرة : ١-٣

(٤) سورة البقرة : ٢٨٥

التي وصف بها نفسه من العلم والسمع والبصر والرضا والمحبّة والاستواء على العرش وغيرها ؟!!

الثالث : النصوص الآمرة بالإيمان بأسماء الله وصفاته :

المطالع في آيات الكتاب يجد النصوص التي تتحدث عن أسماء الله وصفاته لا تقف عند حدّ الإخبار بهذه الأسماء والصفات ، ولكنها تأمر بالإيمان بها ، وتلزم به ، أفيكون مسلما من ردَّ على الله أمره ، ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ (١) .

وصدق ربّي ، فقد أصاب كثير من هؤلاء الرادّين للأسماء والصفات الفتن ، كما أصاب كثير منهم العذاب الأليم في الدنيا قبل الآخرة ، كما علم من سيرتهم وأخبارهم .

والنصوص الآمرة بالعلم بالله ، أو العلم بأسمائه وصفاته كثيرة في كتاب الله عزَّوجلَّ،فقدأمرنا الحقُّ ـ تبارك وتعالى ـ بأن نعلم أن ربنا عليم بكلِّ شيء ﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم ﴾ (٢) .

وأمرنا بالعلم بأنَّ الله بصير بأعمالنا ﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾ (٣) .

وأمرنا بأن نعلم بأن ربنا سميع عليم ، غفور رحيم ، غني حميد ، عزيز حكيم ، ﴿واعلموا أن الله سميع عليم ﴾ (٤) ، ﴿ فاعلموا أن الله غفور رحيم ﴾ (٥) ، ﴿واعلموا أن الله غني حميد ﴾ (٦) ، ﴿ فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴾ (٧) .

---

(١) سورة النور : ٦٣

(٢) سورة البقرة : ٢٣١

(٣) سورة البقرة : ٢٣٣

(٤) سورة البقرة : ٢٤٤

(٥) سورة المائدة ٣٤

(٦) سورة البقرة ٢٦٧

والله يصرف الآيات في خلقه ، ويظهر لهم بديع صنعه كي يعلموا بأنّ اللّه على كل شيء قدير ، وأنه مالك الملك ، ﴿ ألم تعلم أن اللّه على كل شيء قدير ، ألم تعلم أن له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ [1] .

والنصوص الدالة على وجوب التّعرف على صفات ربنا كثيرة ، والحق أن كلّ النصوص على كثرتها التي ذكر الله فيها صفاته تدلّ على وجوب التّعرُّف على الله من خلال صفاته ، فإنّ الله أمرنا بالإيمان به والعلم به ، ولا يتم إيمان عبد لم يؤمن بالصفات التي وصف بها نفسه ، أو وصفه بها رسوله صلى الله عليه وسلم .

وإذا لم نعلم معنى صفة من الصفات الواردة في الكتاب والسنّة ، فإنّه يجب الإيمان بها تصديقا لكتاب الله ـ تبارك وتعالى ـ وسنّة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم .

أما ما يصفه به الواصفون مما لم يرد في الكتاب والسنّة ، فيتوقف إثباته ونفيه على معرفة مراد قائله منه ، فإذا ذكر معنى صحيحا أثبتناه ، وإلا نفيناه ، وسيأتي مزيد بيان لهذا المبحث فيما يأتي إن شاء الله .

الأسماء والصفات الثابتة بالأحاديث الآحاد

الذي عليه أهل العلم إثبات ما أثبته الوحي في المسائل الاعتقادية من غير تفريق بين ما ثبت بالقرآن أو الحديث الصحيح ، ومن غير تفريق بين المتواتر والآحاد إذا كان الحديث صحيحا .

ولذا فإنّ أهل العلم يذكرون في أسمائه تبارك وتعالى : الحنّان ، والمنّان ، والشافي ، والسبّوح ، مما ورد في الأحاديث الصحيحة ، وقد خالف بعض المتأخرين من الفقهاء والأصوليين في إثبات المسائل الاعتقادية بأحاديث الآحاد .

---

(٧) سورة البقرة : ٢٠٩

(١) سورة البقرة : ١٠٦-١٠٧

والصواب صحة ذلك ، وقد حققنا هذه المسألة في كتابنا : « أصل الاعتقاد » .

الأساس الثاني :
اعتقادهم أنَّ أسماء الله كلها حسنى وصفاته كلها كاملة عليا .

فأهل السنَّة والجماعة الذين ساروا على منهج الصحابة والتابعين يعتقدون جازمين بأنَّ الصفات التي وصف الله بها نفسه ، والأسماء التي سمَّى بها نفسه لا نقص فيها بوجه من الوجوه ، وهي أحسن الأسماء وأكمل الصفات .

قال الله ـ تبارك وتعالى ـ مقررا هذه الحقيقة : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾[1] . وقال : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعو فله الأسماء الحسنى﴾ [2] . وقال : ﴿ الله لاإله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾ [3] . وقال: ﴿ هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى ﴾ [4] .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : « الكمال ثابت لله ، بل الثابت له هو أقصى ما يمكن من الأكملية ، بحيث لا يكون وجود كمال لا نقص فيه إلا وهو ثابت للرب ـ تبارك وتعالى ـ يستحقه بنفسه المقدسة »[5] .

ويقول ابن القيم : « صفات الله كلها صفات كمال محض ، فهو موصوف من الصفات بأكملها ، وله من الكمال أكمله . وهكذا أسماؤه الدالة على صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها ، فليس في الأسماء أحسن منها ، ولا يقوم غيرها مقامها ، ولا يؤدي معناها »[6] .

---

(١) سورة الأعراف : ١٨٠

(٢) سورة الإسراء : ١١٠

(٣) سورة طه : ٨

(٤) سورة الحشر : ٢٤

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٦/٧١

(٦) بدائع الفوائد : ١/١٦٨

« والحسنى جمع الأحسن ، لا جمع الحسن ، وتحت هذا سرّ نفيس ، وذلك أنّ الحسن من صفات الألفاظ ، والأحسن من صفات المعاني ، فكل لفظ له معنيان حسن وأحسن ، فالمراد الأحسن منهما ، حتى يصحّ جمعه على حسنى ، ولا يفسّر بالحسن منهما إلا الأحسن لهذا الوجه »[1] .

إذا تقرر هذا الأصل فكيف يقصد بعض المنتسبين إلى هذا الدِّين إلى الأسماء التي سمّى بها نفسه ، والصفات التي امتدح بها نفسه ، فيزعمون أنه يجب أن تنفى عن الله تبارك وتعالى ، أو تؤوّل ، لأنها تستلزم التشبيه ، وأنّ كمال الباري لا يمكن أن يتحقق إلا بنفيها أو تأويلها ؟

الأدلة على اتصاف البارى جلّ وعلا بصفات الكمال

أولا : دليل الفطرة

إنّ الإقرار بكمال الله في أسمائه وصفاته أمر فطرت عليه النفوس البشرية ، ولوخلا الذين ينفون عن الله صفاته وأسماءه أو بعضا منها عن الشبهات والتخرصات التي أمرضت منهم القلوب ، وأفسدت العقول والنفوس لوجدوا أنفسهم يقرّون بصفات الكمال من غير تردد ولا شكوك ، ولكنها المبادئ الفاسدة تفسد الفطرة الإنسانية وتدسّيها ، ومن نظر في حال الذين ينفون عن الله صفاته وأسماءه يجدهم يغالبون أنفسهم وفطرتهم ويقهرونها ويجاهدون في طمس معالم الحق فيها ، فهي تدعوهم بالسليقة إلى اثبات علو الله ومحبته ورضاه وغير ذلك من صفات الكمال ، ولكنهم يدفعون الحق إعمالا لما تبنوه من نظريات فاسدة .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية ــ رحمه الله تعالى ــ في الجهمية الذين يقولون في الله الأقوال المتناقضة : « هؤلاء يُكْرِهون فطرهم وعقولهم على قبول المحال المتناقض، فيقولون : هو في العالم ، وليس هو فيه ، أو هو العالم وليس هو إياه »[2] .

---

(١) إيثار الحق : ص ١٦٦

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٤/ ٦٠

وقال شارح الطحاوية : « أودع الله في الفطرة الإنسانية التي لم تتنجسس بالجحود والتعطيل ، ولا بالتشبيه والتمثيل ، أنه سبحانه الكامل في أسمائه وصفاته ، وأنه الموصوف بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ، وما خفي عن الخلق من كماله أعظم وأعظم مما يعرفونه منه »[1] .

وقد ردد شيخ الإسلام في مؤلفاته قصة الشيخ أبي جعفر الهمداني مع أبي المعالي الجويني في استدلال الهمداني على أبي المعالي بالفطرة على إثبات صفة العلو لله .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « ومن هذا الباب ما ذكره محمد بن طاهر المقدسي في حكايته المعروفة : أن الشيخ أبا جعفر الهمداني حضر مرة والأستاذ أبو المعالي الجويني يذكر على المنبر : « كان الله ولا عرش » ، ونفى الاستواء ، على ما عرف من قوله ، وإن كان في آخر عمره رجع عن هذه العقيدة ، ومات على دين أمة وعجائز نيسابور .

فقال الشيخ أبو جعفر : « يا أستاذ دعنا من ذكر العرش - يعني لأن ذلك إنما جاء في السمع - أخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا ، ما قال عارف قط : يا الله إلا وجد من قلبه معنى يطلب العلو ، لا يلتفت يمنه ولا يسره ، فكيف ندفع هذه الضرورة عن قلوبنا ؟

فصرخ أبو المعالي ، ووضع يده على رأسه ، وقال : حيرني الهمداني ، أو كما قال ونزل .

فهذا الشيخ تكلم بلسان جميع بني آدم ، فالإقرار بعلو الله على الخلق أمر فطري ضروري نجده في قلوبنا نحن وجميع من يدعو الله ، فكيف ندفع هذه الضرورة عن أنفسنا .

والجارية التي قال لها الرسول صلى الله عليه وسلم : « أين الله ؟ قالت : في السماء . قال أعتقها ، فإنها مؤمنة ». جارية أعجمية . أرأيت من فقهها وأخبرها بما

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية : ص ٩٥

ذكرته ؟ وإنما أخبرت عن الفطرة التي فطرها الله عليها ، وأقرها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ذلك وشهد لها بالإيمان[1] .

ثانيا : اتصاف الإله المعبود بصفات الكمال دليل صحة ألوهيته وربوبيته وسلبها عنه دليل بطلان الألوهية والربوبية :

الإله الربُّ المعبود لا بدَّ أن يكون كاملاً ، ونقص المعبود دليل على بطلان ألوهيته وربوبيته ، ولهذا ذم القرآن آلهة الكفار وعابها بسلب أوصاف الكمال عنها ، فقد عابها بأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تتكلم ولا تهدي ، ولا تنفع ولا تضر .

قال تعالى حكاية عن خليله إبراهيم في محاجته لأبيه ﴿ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا ﴾[2] .

وقال الخليل لقومه طاعنا في ألوهية أصنامهم : ﴿ هل يسمعونكم إذ تدعون، أو ينفعونكم أو يضرون ﴾[3] وقال لهم بعد أن حطَّم أصنامهم : ﴿أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾[4] .

وقال الحق مبينا وجه بطلان ألوهيَّة العجل الذي عبده بنو إسرائيل : ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا ، اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾[5] .

فجعل الحق ـ تبارك وتعالى ـ نفي السمع وإجابة الدعاء ، وعدم النفع والضر ، وعدم الكلام والهداية دليلا على بطلان الألوهية . ومن هنا يعلم جناية نفاة الصفات الذين عَطَّلوا الربَّ ـ تبارك وتعالى ـ عن صفاته ، أو أوَّلوا صفاته ، وزعموا أن

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام بشيء من الاختصار : ٤/٦١

(٢) سورة مريم : ٤٢

(٣) سورة الشعراء : ٧٢-٧٣

(٤) سورة الأنبياء : ٦٦-٦٧

(٥) سورة الأعراف : ١٤٨

التوحيد يقتضي نفي الصفات .

إن هؤلاء خالفوا أدلَّة العقول الصحيحة كما خالفوا النصوص الصريحة الدالة على أنَّ الإله الحقَّ المعبود لا بدَّ أن يتصف بصفات الكمال والجلال ، وكلما كثرت صفات الكمال كان الحمد والتعظيم للربِّ أكمل وأعظم ، ولهذا فإنَّ العباد لا يستطيعون أن يحصوا الثناء على الحقِّ ـ تبارك وتعالى ـ لكمال أسمائه وصفاته وكثرتها.

ثالثا : الأدلة العقلية الدالة على اتصاف الباري بصفات الكمال

أرشد القرآن عقول البشر ونبهها إلى الأدلة العقلية التي تدلها على ربها وترشدها إليه، وهي أدلة سهلة قريبة المأخذ ، تقوم على أصول صحيحة لا يخالطها باطل ، كما هو الحال في كثير من أدلة المتكلمين ، ففيها من التناقض والباطل ما يضعف الإيمان ، ويشكِّك في الحق .

وقد أرشد الحق العقول إلى الدليل الذي يدلها على كماله ، وكمال أسمائه وصفاته في قوله : ﴿ للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى ﴾ [1] ويقول﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾[2] ويقول : ﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ [3] .

ومثل السوء الذي جعله لأعدائه هو المثل المتضمن للنقائص والعيوب وسلب كمال أعدائه المشركين وأوثانهم .

والمثل الأعلى الذي يستحقه ـ الباري تبارك وتعالى ـ هو المتضمن لإثبات الكمال كلِّه لله تبارك وتعالى ، ولذا فإنَّ الذي يسلب عن الله صفات كماله فإنّه يجعل له مثل السوء ، وينفي عنه ما وصف به نفسه من المثل الأعلى ، وهو الكمال

---

(١) سورة النحل : ٦٠

(٢) سورة الروم : ٢٧

(٣) سورة الملك : ١٤

المطلق ، المتضمن للأمور الوجودية ، والمعاني الثبوتية التي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمل – كان بها أكمل وأعلى من غيره .

ولما كانت صفات الرب ـ سبحانه وتعالى ـ أكثر وأكمل كان له المثل الأعلى ، وكان أحق به من كل ما سواه ، بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى المطلق إثنان ، لأنهما إن تكافآ من كل وجه لم يكن أحدهما أعلى من الآخر ، وإن لم يتكافآ فالموصوف به أحدهما وحده ، فيستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مِثْلٌ أو نظير[1] .

هذا ما قرره شارح الطحاوية في استحقاق الباري للمثل الأعلى ، وقد دلَّ قوله تبارك وتعالى : ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ [2] العقول على أن الله ـ تبارك وتعالى ـ يستعمل في حقّه قياس الأولى ، وهذا يقضي بأنَّ كلَّ كمال في نفسه ثبت للمخلوق ليس فيه نقص بوجه من الوجوه فإن الخالق أولى به من المخلوق ، وكلُّ نقص تنزه عنه المخلوق ، وليس فيه كمال بوجه من الوجوه فالخالق أولى بأن يتقدس ويتنزه عنه .

فالعلم والحكمة والقدرة والقوة والسمع والبصر صفات يمدح بها العباد ، فالخالق أولى بالاتصاف بها ، والجهل والموت والعمى والصمم صفات يتنزه العباد عنها ، والباري أولى بالتنزه والتقدس عنها[3] .

وقد ورد في النصوص التصريح بأن الله تبارك وتعالى : ﴿ أرحم الراحمين﴾[4] و ﴿ أحكم الحاكمين ﴾ [5] و ﴿ أسرع الحاسبين ﴾[6] و ﴿أحسن الخالقين ﴾ [7] وأنه الأكبر ، والأعز ، والأعلم ، والأقوى .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية : ١٤٤

(٢) سورة النحل : ٦٠

(٣) راجع شرح العقيدة الطحاوية : ص ١٢٢ ومجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٣/ ٣٠

(٤) سورة الأنبياء : ٨٣

(٥) سورة هود : ٤٥

(٦) سورة الأنعام : ٦٢

(٧) سورة المؤمنون : ١٤

وورد في القرآن بأنّ الرب ـ تبارك وتعالى ـ ﴿ خير الفاصلين ﴾ [1] و ﴿ خير الرازقين ﴾ [2] و﴿ خير الوارثين ﴾ [3] و ﴿خير الناصرين ﴾ [4] و ﴿خير الراحمين ﴾ [5] ، و ﴿ خيرالفاتحين ﴾ [6] ، و﴿ خير الغافرين ﴾ [7] ، ﴿ والله خير وأبقى﴾ [8] .

وكلُّ هذه النصوص تدلّ دلالة واضحة على المنهج القرآني الذي يرشد العقول إلى استعمال قياس الأولى في حقه تبارك وتعالى ، فكلّ كمال لا نقص فيه ثبت للمخلوق فالخالق أولى به . ويمكن أن يجري قياس الأولى بطريق آخر فيقال : كل كمال في المخلوق فإنّه منحة من الخالق ، فكيف يهب الكمال من لا يملكه ولا يتصف به[9] ؟ وقد قيل : فاقد الشيء لا يعطيه .

وقد سلك الفلاسفة وعلماء الكلام في استدلالهم على كمال الله بقياس التمثيل الذي يستوي فيه الأصل والفرع ، وقياس الشمول الذي تستوي أفراده ، فمثلوا الباري بغيره ، وأدخلوه هو وغيره تحت قضايا كلية تستوي أفرادها ، وهذا المنهج أدخل الخلل عليهم ، وقادهم إلى الإضطراب والشك والحيرة بسبب ضعف الأدلة التي اعتمدوها ، بخلاف المنهج القرآني الذي دلَّ على أن الباري يستعمل في حقّه قياس الأولى على النحو الذي بيناه .

---

(١) سورة الأنعام : ٥٧

(٢) سورة المائدة : ١١٤

(٣) سورة الأنبياء : ٨٩

(٤) سورة الأنعام : ١٥٠

(٥) سورة المؤمنون : ١٠٩

(٦) سورة الأعراف : ٨٩

(٧) سورة الأعراف : ١٥٥

(٨) سورة طه : ٧٣

(٩) راجع شرح العقيدة الطحاوية : ص ١٢٢ . ومجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٣/ ٣٠

تفسير أهل العلم للمثل الأعلى

الذي يتأمل في عبارات أهل العلم في تفسيرهم للمثل الأعلى الوارد في النص يجدها تدور على **أربعة معاني** :

الأول : ثبوت الصفات العليا لله ربِّ العالمين ، التي هي الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بحال من الأحوال ، وهذا لا يتوقف على علم العباد بها ، فالكمال المطلق كلّه للّه، عَلِمه العباد أم جهلوه .

الثاني : المثل الأعلى هو ما في قلوب الذين يعبدون الله ويذكرونه من تعظيم الله وتقديسه ، ومحبته وخشيته والخوف منه ورجائه والاعتماد عليه والتوكل عليه ، وهو الذي في قلوبهم تجاه ربهّم ، لا يشْركه في ذلك غيره أصلا ، ولاينافي هذا ما في قلوب بعض خلقه من الشرك والكفر ، فإنَّ هؤلاء يغالبون الفطرة ويدنسونها ، وعندما ينزاح الركام عن الفطرة يتبين ما في جوهر الإنسان من تعظيم الله وتمجيده وتقديسه ، وأنَّ المكانة التي للربِّ في قلب العبد لا تدانيها مكانة أحد .

الثالث : المثل الأعلى هو إثبات صفات الكمال للواحد الأحد ، وتنزيهها من العيوب والنقائص والتمثيل .

الرابع : المثل الأعلى عبادة الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ بواسطة العلم والمعرفة القائمة في نفوس عابديه وذاكريه ، ومن هذه العبادات القلبية مثل الإخلاص والتوكل ومحبة الله والإنابة إليه[1] .

من كمال أسماء الله وصفاته كونه ـ تبارك وتعالى ـ متصفا بها أزلا وأبدا .

ولا يجوز أن يتصور العبد أنَّ الله وُصِفَ بصفةٍ بعد أن لم يكن متصفا بها ، أو أنَّ بعض صفاته تزول عنه ، لأنَّ إتصاف الباري بصفاته كمالٌ ، وَفقدها نقص ، والله لا

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية بتصرف : ص ١٤٤

يمكن أن يحصل له الكمال بعد اتصافه بالنقص ، كما لا يجوز أن يتصف بالكمال ثم يزول عنه .

يقول الطحاوي مقررا هذا المعنى : « ما زال بصفاته قديما قبل خلقه ، لم يزدد بكونهم شيئا لم يكن قبلهم من صفته ، وكما كان بصفاته أزليا ، كذلك لا يزال عليها أبديا ».

يقول شارح الطحاوية مبينا وموضحا :« لم يزل الله سبحانه متصفا بصفات الكمال : صفات الذات وصفات الفعل ، ولا يجوز أن يُعْتَقَدَ أنَّ الله وُصِفُ بصفة بعد أن لم يكن متصفا بها ، لأنَّ صفاته ـ سبحانه ـ صفات كمال ، وفقدها صفة نقص ، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفا بضده ».

ثمَّ بين الشارح رحمه الله أنَّه « لا يَرِدُ على هذه صفات الفعل والصفات الاختيارية ونحوها كالخلق والتصوير ، والإماتة والإحياء ، والقبض والبسط والطي ، والاستواء و الإتيان والمجيء والنزول ، والغضب والرضى ونحو ذلك مما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ..... ، لأنَّ هذا الحدوث بهذا الاعتبار غير ممتنع ، ولا يطلق عليه أنَّه حدث بعد أن لم يكن ، ألا ترى أنَّ من تكلم اليوم ، وكان متكلما بالأمس لا يقال : إنَّه حدث له الكلام ، ولو كان غير متكلم لآفة كالصغر والخرس ثم تكلم ، يقال : حدث له الكلام ، فالساكت بغير آفة يسمَّى متكلما بالقوة ، بمعنى أنَّه يتكلم إذا شاء ، وفي حال تكلُّمه يسمَّى متكلما بالفعل ، وكذلك الكاتب في حال الكتابة هو كاتب بالفعل ، ولا يخرج عن كونه كاتبا في حال عدم مباشرته الكتابة»[1] .

واتصاف الباري بصفات الكمال أبدا وأزلا يدلّنا على « أن أفعال الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ صادرة عن أسمائه وصفاته ، وأسماء المخلوقين صادرة عن أفعالهم ، فالربّ ـ تبارك وتعالى ـ أفعاله عن كماله ، والمخلوق كمالُه عن فعاله ، فاشتقت له الأسماء بعد أن كُمُلَ بالفعل . فالربُّ لم يزل كاملا ، فحصلت أفعاله عن كماله ، لأنه كامل

---

(١) شرح العقيد الطحاوية : ١٢٧-١٢٨ .

بذاته وصفاته ، فأفعاله صادرة عن كماله ، كمَل فَفَعَل ، والمخلوق فعل فكَمَلَ الكمال اللائق به» . [1]

ما يجوز إطلاقه على الباري وما لا يجوز

أولا ـ لا يجوز إطلاق الأسماء المذمومة على الحقّ تبارك وتعالى

الأفعال والأسماء المذمومة مطلقا لا يجوز إطلاقها على الحق ـ تبارك وتعالى ـ بحال ، لا على سبيل المقابلة والجزاء ، ولا في غيرها ، فلا يقال : إنّ الله فقير وعاجز أو خائن ، ومن هنا يعلم خطأ قول من قال من الذين لا يعلمون : خان الله من يخون، وظلم الله من ظلمه ، والله يجور عليك ، فإنّ الله لا يخون ، ولا يظلم ، ولا يجور مطلقا ، ولذلك قال الله في الذين يريدون خيانة الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم ﴾ [2] .

ولم يقل فيهم كما قال في المخادعين ﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ [3] لأنّ الخيانة صفة ذمّ بكلّ حال بخلاف الخداع ، فإنّه في حال المقابلة والمجازاة صفة مدح كما في الآية .

ثانيا ـ لا يجوز تسمية الله أو وصفه بما هو شّر :

لما كانت أفعاله صادرة عن أسمائه وصفاته فإنّ أفعاله كلّها خير ، وفي الحديث «والشرّ ليس إليك » ولو جاز أن ننسب الشرّ إلى الله تعالى ، لجاز أن نشتق لله أسماء تدل على ذلك الفعل ، وبذلك لا تكون أسماء الله كلها حسنى ، بل يكون فيها ما ليس بالأحسن ، وهذا باطل ، فالشرّ لا يضاف إلى الله فعلا ولا وصفا ، وإنما يدخل في مفعولاته ، وفرق بين الفعل والمفعول ، فالشرّ قائم بمفعوله المباين له ، لا بفعله الذي هو فعله[4] .

---

(١) بدائع الفوائد : ١/١٦٢

(٢) سورة الأنفال : ٧١

(٣) سورة النساء : ١٤٢

(٤) راجع بدائع الفوائد : ١/١٦٣

وقد قَرَّرَ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى « أنّه لا يجيء في كلام الله وكلام رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إضافة الشر وحده إلى الله ، ولا يذكر الشر إلا على أحد وجوه ثلاثة :

١ـ إمّا أن يدخل في عموم المخلوقات ، فإنّه إذا دخل في العموم أفاد عموم القدرة والمشيئة والخلق ، وتضمّن ما اشتمل عليه من حكمة تتعلق بالعموم كقوله تعالى : ﴿ الله خالق كل شيء﴾ [١] وكل ما أوجده الله من رحمة ونفع ومصلحة فهو من فضله تعالى ، وكلُّ ما كان غير ذلك فهو من عدله ، فكلُّ نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل .

٢ـ وإما أن يضاف إلى السبب الفاعل كقوله تعالى : ﴿ قل أعوذ برب الفلق من شرِّ ما خلق ﴾ [٢] ، وقوله : ﴿ ماأصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ [٣] وقوله : ﴿ فأردت أن أعيبها ﴾ [٤] .

٣ـ وإمّا أن يحذف فاعله كقوله : ﴿ وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ﴾ [٥][٦] .

وقال ابن القيم : « الشر لا يدخل في صفات الله ، ولا في أفعاله ولا في أسمائه ، وإنما هو في المفعولات ، مع أنه شر بالإضافة والنسبة إلى العبد ، وإلا من حيث إضافته ونسبته إلى الخالق ـ سبحانه ـ فليس بشر من هذه الجهة »[٧] .

---

(١) سورة الزمر : ٦٢

(٢) سورة الفلق : ٢-١

(٣) سورة النساء : ٧٩

(٤) سورة الكهف : ٧٩

(٥) سورة الجن : ١٠

(٦) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٨/ ٩٤

(٧) الفوائد : ص ١٤٣

ثالثاـ لا يجوز تصغير أسماء الباري جلّ وعلا

لما كان التصغير قد يفهم منه التحقير فإنّ أهل العلم اتفقوا على أنّه لا يجوز أن تصغّر صفات الباري تبارك وتعالى ، وقد نقل الإجماع على عدم جواز ذلك إمام الحرمين ، ونقله عنه ابن حجر العسقلاني[1] .

رابعا ـ ما يجوز إطلاقه في حال دون حال ، وهو ما أطلق على الله على سبيل الجزاء والعدل والمقابلة ، فإن قيل : فما قولكم فيما ورد في القرآن من أفعال أو أسماء أطلقها الله علي نفسه مثل قوله تعالى : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾[2] ، وقوله : ﴿ ومكروا ومكر الله﴾ [3] ، وقوله ﴿ نسوا الله فنسيهم﴾[4] ، وقوله : ﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤن، الله يستهزئ بهم ﴾ [5] . وقوله : ﴿ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون ﴾ [6] . وقوله : ﴿سخط عليهم ولعنهم ﴾ [7] وقوله : ﴿ إنا من ٱلْمُجْرِمِينَ منتقمون ﴾ [8] ونحو ذلك.

والجواب : أن هذه الصفات تكون كمالا في حال ونقصا في حال ، « وإذا كانت الصفة كمالا في حال ، ونقصا في حال لم تكن جائزة في حقّ الله ولا ممتنعة على سبيل الإطلاق ، فلا تُثْبت له إثباتا مطلقا ، ولا تنفى عنه نفيا مطلقا ، بل لا بدّ من التفصيل ، فتجوز في الحال التي تكون كمالا ، وتمنع في الحال التي تكون نقصا ، وذلك كالمكر والكيد والخداع ونحوها ، فهذه صفات تكون كمالا إذا كانت في

---

(١) فتح الباري : ٣٦٦/١٣

(٢) سورة النساء : ١٤٢

(٣) سورة آل عمران : ٥٤

(٤) سورة التوبة : ٦٧

(٥) سورة البقرة : ١٤-١٥

(٦) سورة الدخان : ١٧

(٧) سورة المائدة : ٨٠

(٨) سورة السجدة : ٢٢

مقابلة من يعاملون الفاعل بمثلها ، لأنها حينئذ تدلّ على أن فاعلها قادر على مقابلة عدوّه بمثل فعله أو أشد ، وتكون نقصا في غير هذه الحال ، ولم يذكرها الله تعالى من صفاته على سبيل الإطلاق ، وإنما ذكرها في مقابلة من يعاملونه ورسله بمثلها»[1].

ومن هنا يعلم الخطأ الذي وقع فيه من عدّ في أسماء الله الحسنى اسم الماكر والمخادع والناسي والمستهزئ والفاتن والساخط والمنتقم ونحوها ، وقد حمل ابن القيم حملة شعواء على من ذهب هذا المذهب ، فقد نَقَلَ عنه الشيخ حافظ حكمي قوله : « إن الله تعالى لم يصف نفسه بالكيد والمكروالخداع والاستهزاء مطلقا ، ولا ذلك داخل في أسمائه الحسنى ، ومن ظنّ من الجهال المصنفين في شرح الأسماء الحسنى أن من أسمائه الماكر ، المخادع ، المستهزئ ، الكائد ، فقد فاه بأمر عظيم ، تقشعر منه الجلود ، وتكاد الأسماع تُصَمُّ عند سماعه ، وغرّ هذا الجاهل أنه ـ سبحانه وتعالى ـ أطلق على نفسه هذه الأفعال ، فاشتق له منها أسماء ، وأسماؤه ـ تعالى ـ كلُّها حسنى ، فأدخلها في الأسماء الحسنى ، وقرنها بالرحيم الودود ، الحكيم الكريم ، وهذا جهل عظيم ، فإنّ هذه الأفعال ليست ممدوحة مطلقا ، بل تمدح في موضع ، وتذمّ في موضع ، فلا يجوز إطلاق أفعالها على الله تعالى مطلقا ، فلا يقال: « إنه تعالى يمكر ويخادع ويستهزئ ويكيد ، فكذلك بطريق الأولى لا يشتق له منها أسماء يسمى بها »[2] .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيميه ما ملخصه : « ليس من الأسماء الحسنى اسم يتضمن الشرّ، وإنما يذكر الشرّ في مفعولاته ، واسم « المنتقم » ليس من أسماء الله الحسنى الثابتة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وإنما جاء في القرآن مقيّدا كقوله تعالى : ﴿ إنا من المجرمين منتقمون ﴾ [3] ، وقوله تعالى : ﴿ إن الله عزيز ذو

---

(١) القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى للشيخ محمد صالح العثيمين : ص ٢٠

(٢) معارج القبول : ١/٧٦ .

(٣) سورة السجدة : ٢٢

انتقام﴾[1] [2] .

٥ـ ما لا يجوز إطلاقه على الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ لانقسامه إلى مدح وذم

وقريب مما ذكرناه مَنْ جعل من أسمائه المريد والفاعل والصانع والماهد ونحو ذلك ، وهذه ليست من أسمائه ، لأنَّ الإراده والفعل والصنع والمهد منقسمة إلى ما هو كمال وما هو نقص ، ولذا فإنَّ الله لم يطلق على نفسه منها إلا الأكمل فعلا وخبرا ، كقوله : ﴿ تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ﴾ [3] ، وقوله : ﴿والأرض فرشناها فنعم الماهدون ﴾ [4][5] .

وقد عد ابن العربي في أسمائه ـ تبارك وتعالى ـ الفاعل والزارع . والصواب من القول أن هذين وامثالهما إذا أطلقا بدون متعلق ولا سياق يدلُّ على وصف الكمال فيهما فلا يفيدان مدحا ، أما في سياقها من الآيات التي ذكرت فيها فهي صفات كمال ومدح ، قال تعالى : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين﴾[6] وقال تعالى: ﴿ أفرأيتم ما تحرثون ،أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾[7] كما عدّ من أسمائه الحسنى رابع ثلاثة ، وسادس خمسة ، أخذا من آيات سورة المجادلة ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادهم ﴾[8] وهذا خطأ، فالآية لا تدلُّ على ذلك، ولا تقتضيه لا منطوقا ولا مفهوما،ومعنى النص: الله رابع كل ثلاثة في نجواهم ، وسادس كل خمسة كذلك، يعلم أفعالهم ، ويسمع أقوالهم كما هو مفهوم من صدر الآية ، وهذا هو المعنى المفهوم من سياق النص .

---

(١) سورة إبراهيم : ٤٧

(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٨/ ٩٦

(٣) سورة الأنفال : ٦٧

(٤) سورة الذاريات : ٤٨

(٥) راجع بدائع الفوائد : ١/ ١٦١

(٦) سورة الأنبياء : ١٠٤

(٧) سورة الواقعة : ٦٣ ـ ٦٤

(٨) سورة المجادلة : ٧

٦ـ ما لا يجوز إطلاقه على الحق سبحانه إلا مقترنا بغيره وهو الأسماء المزدوجة[١] .

وقد لاحظ علماؤنا أن بعض أسماء الله ـ تبارك وتعالى ـ لا يفيد الكمال مفردا، بل يجب اقترانه بمقابله حتى يفيد الكمال .

ومن هذه الأسماء التي لا تفيد الكمال بمفردها ، ويجب اقترانها بمقابلها اسم المذلُّ الضارُّ المنتقم المانع ، فلا يجوز أن يُثْنَى على الله بمجرد الإذلال والإضرار والانتقام والمنع ، والصواب أن يقال : المعزُّ المذلُّ ، الضارُّ النافع ، العفو المنتقم ، المعطي المانع ، فالكمال لرب العالمين يتحقق في اقتران كل اسم بما يقابله على النحو الذي ذكرناه ، لأنه يراد به أنه المنفرد بالربوبية وتدبير الخلق والتصرف فيهم إعزازا وإذلالا ، وضرّا ونفعا ، وعفوا وانتقاما ، وإعطاء ومنعا ، وهذه الأسماء المزدوجة تجري الأسماء منها مجرى الاسم الواحد الذي يمتنع فصل بعض حروفه عن بعض ، فهي وإن تعددت جارية مجرى الاسم الواحد ، ولذلك لم تجئ مفردة ، ولم تطلق عليه إلا مقترنة ، فإذا قلت : يا مذلُّ يا ضارُّ يا مانع ، وأخبرت بذلك لم تكن مثنيا عليه ولا حامدا له حتى تذكر مقابلها .

ولاحظ بعض المحققين أن اقتران هذه الأسماء بما يقابلها يفيد العموم ، وقد تقرر أن القرآن يضيف الشر إلى الله بإحدى طرق ثلاث إحداها : دخوله في عموم المخلوقات ، وبذلك يدخل في عموم قدرته ومشيئته وخلقه ، كما سبق بيانه .

وهذه الأسماء المزدوجة قليلة ، والكثير في أسمائه هو ما يجوز إطلاقه على الله منفردا ومقترنا بغيره، ، كالعليم والسميع والبصير والحكيم ، وهذا يجوز دعاؤه به مفردا ومقترنا بغيره ، كما يجوز الثناء عليه به مفردا ومقترنا بغيره[٢] .

---

(١) هذا مبني على إثبات هذه الأسماء لله تبارك وتعالى ، وقد تبين لنا أن أكثر هذه الأسماء لم ترد في الكتاب والسنة.

(٢) راجع بدائع الفوائد : ١/١٦٧

الأساس الثالث :

تنزيه الباري ـ تبارك وتعالى ـ عن التشبيه والتمثيل وكلِّ صفات النقص

وهذا معلم واضح عند السلف الصالح وأتباعهم ، فإنَّ من أعظم مقاصدهم تقديسهم لربِّهم ـ تبارك وتعالى ـ عن كل نقص وعيب .

ولا يقف بهم تنزيه الباري عند حدّ نفي التشبه فحسب ، بل هم ينزهونه تنزيها مطلقا سواءً بنفي التشبيه أو بالإخبار بنفي ما لا يليق به من الصفات ، أو التسبيح ، وبغير ذلك من أنواع التنزيه ، بينما تجد الذين يخالفونهم انصبت كلُّ جهودهم على نفي التشبيه ، وضلُّوا في هذا المسار عندما نفوا الصفات بحجة أنها تؤدي إلى التشبيه .

وهذا المعلم نصت عليه نصوص كثيرة من كتاب الله تعالى كقوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شئ وهو السميع البصير ﴾ [1] . وقوله : ﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾ [2] ، وقوله : ﴿ هل تعلم له سمّيا ﴾ [3]

وقد قَرَّر أهل السنة والجماعة بناء على ما فقهوه من بيان الله تعالى أن الله لا يشبه شيئا من خلقه ، لا في ذاته ولا في صفاته ، يقول شارح الطحاوية رحمه الله تعالى: « اتفق أهل السنة على أن الله ليس كمثله شيء ، لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله »[4] .

ويقول الإمام أبو حنيفة في كتاب الفقه الأكبر : « وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين ، يعلم لا كعلمنا ، ويقدر لا كقدرتنا ، ويرى لا كرؤيتنا »[5] ، ويقول نعيم

---

(١) سورة الشورى : ١١

(٢) سورة الإخلاص : ٤

(٣) سورة مريم : ٦٥

(٤) شرح العقيدة الطحاوية : ص ١٢٠

(٥) شرح العقيدة الطحاوية : ص ١٢٠ .
ونعيم هذا أول من جمع المسند في حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان أعلم الناس بالفرائض ، أقام مدة في العراق يطلب الحديث ثم سكن مصر ، توفي سنة (٢٢٨) هـ .

ابن حماد : « من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر ، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه »[1] .

ويقول إسحاق بن راهويه : « من وصف الله فشبهه بصفات أحد من خلق الله فهو كافر بالله العظيم »[2] .

ونقل شيخ الإسلام ابن تيمية « عن الربيع بن سليمان أنه قال : سألت الشافعي ـ رحمه الله ـ عن صفات الله تعالى فقال : « حرام على العقول أن تُمَثِّلَ الله تعالى ، وعلى الأوهام أن تحدّه ، وعلى الظنون أن تقطع ، وعلى النفوس أن تفكر ، وعلى الضمائر أن تعمق ، وعلى الخواطر أن تحيط ، وعلى العقول أن تعقل إلا ما وصف به نفسه ، أو على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام »[3] .

ويقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : « االه ـ سبحانه ـ ليس كمثله شيء لا في نفسه المقدّسة المذكورة بأسمائه وصفاته ، ولا في أفعاله ، فكما نتيقن أنّ الله ـ سبحانه ـ له ذات حقيقة ، وله أفعال حقيقة ، فكذلك له صفات حقيقة ، وهو ليس كمثله شيء ، لا في ذاته ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، وكل ما أوجب نقصا أو حدوثا فإنّ الله منزه عنه حقيقة ، فإنه ـ سبحانه و تعالى ـ مستحق للكمال الذي لا غاية فوقه ، ويمتنع عنه الحدوث لامتناع العدم عليه »[4] .

ويقول الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي مبينا هذا الأصل : « الله ـ سبحانه ـ مخالف لجميع الحوادث ، ذاته لا تشبه الذوات ، وصفاته لا تشبه الصفات ، لا يشبه شيئا من خلقه ، ولا يشبه شيئا من الحوادث ، بل هو منفرد عن جميع المخلوقات ، ليس كمثله شيء ، لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، له

---

(١) المصدر السابق

(٢) شرح العقيدة الطحاوية : ص ١٢٠ إسحاق هذا عالم خرسان في عصره ، اجتمع له الفقه والحديث والحفظ والورع ، روى عنه البخارى ومسلم والترمذي وغيرهم .

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٦/٤

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٢٦/٥ ، وانظر : ٢٦٣/٥

الوجود المطلق ، فلا يتقيد بزمان ، ولا يتخصص بمكان ، والوحدة المطلقة لقيامه بنفسه واستقلاله في جميع أفعاله ، وكل ما توهمه قلبك ، أو سنح في مجاري فكرك،أو خطر في بالك من حسن أو بهاء أو شرف أو ضياء أو جمال ، أو شبح مماثل ، أو شخص متمثل فالله ـ تعالى ـ بخلاف ذلك ، واقرأ : ﴿ ليس كمثله شيء﴾[1] ألا ترى أنه لما تجلى للجبل تَدَكْدَكَ لعظيم هيبته ، فكما أنه لا يتجلى لشيء إلا انْدَكَّ ، كذلك لا يتوهمه قلب إلا هلك ، وارض بما رضيه لنفسه ، وقف عند خبره لنفسه ، مسلِّما مستسلما مصدقا »[2] .

الفرق بين تنزيه الرسل وأتباعهم وتنزيه المعطلة

ما من طائفة إلا وتدعي أنها تريد تقديس ربها فيما تصفه به من صفات أو تنفيه عنه .

ولكن ليس كل من ادعى دعوى فقد أصاب فيما ادعاه ، فهؤلاء المعطلة يزعمون أنهم يريدون تنزيه الباري بنفي كلامه واستوائه وعروج الملائكة إليه ، ونفي علوه ووجهه ويده ونزوله ورأفته ورحمته وغضبه ورضاه ونحو ذلك .

وقد أكذبوا الله في قوله ، وتعالموا على قيوم السموات والأرض ، فضلُّوا وأضلُّوا، وهم في ذلك مخالفون للرسل الكرام ، والذين اتبعوهم بإحسان ، فطريقة اتباع الحق هو إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه ، أو وصفه بها رسوله ، معتقدين أنها صفات كمال وجلال ، وإنما نَفَوْا عنه صفات النقص كما نفوا عنه التشبيه .

وقد حاول بعض الباحثين أن يُقَرِّب المسافة بين أهل السنَّة والجماعة ومن انحرف عن مسارهم من نفاة الصفات بدعوى أن كلا الفريقين يريد بالمنهج الذي سلكه

---

(١) سورة الشورى : ١١

(٢) أقاويل الثقات : ص ١٣٤

تقديس الباري وتنزيهه[1] ، وهو بذلك يجد العذر للذين ضلوا في هذا الباب ، ويعدّ منهجهم في مصاف منهج أهل الحق .

إن تهوين خطيئة الذين انحرف بهم المسار فنفوا عن الله ما أثبته لنفسه من صفات خطأ كبير فيه إكْذَابٌ لله في قوله ، وتكذيب لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا يُهَوِّن من خطيئتهم أنهم يريدون الحق ، فكم من مريد للحق لا يدركه ، وهذه المقالة لو كانت صحيحة لَبُرِّرَ بها كل شرك وضلال ، فكل من سار مسارا من أهل الشرك يدعي أنه يريد تقديس معبوده وتعظيمه .

لا يكفي في التنزيه مجرد نفي التشبيه .

هناك أصلان متلازمان : الأول : وصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والثاني : نفي مشابهة صفات الله لصفات خلقه ، ولا يكفي المثبتين مجرد نفي التشبيه من غير اقتصار على الصفات المنصوص عليها ، إذ لو جاز ذلك لجاز أن يوصف ـ سبحانه ـ من الأعضاء والأفعال بما لايكاد يحصى مما هو ممتنع عليه ـ مع نفي التشبيه ، وأن يوصف بالنقائص التي لا تجوز عليه مع نفي التشبيه ، كأن يقول : إنه يبكي لا كبكاء العباد ، ويحزن لا كحزنهم ، ويجوع لا كجوعهم ، ويعطش لا كعطشهم ، ويشرب لا كشربهم[2] .

فيقال لهذا القائل : لقد أخطأت الطريق ، وانحرفت عن الصراط المستقيم ، ولم تصنع شيئا عندما نسبت إلى الله هذه النقائص والمعايب ، ونفيك المشابهة بين الخالق والمخلوق لا يغني عنك شيئا ، ولست بحاجة في رد هذه الصفات إلى نفي التشبيه ، بل يجب نفيها أصلا ، لأنها صفات نقص .

---

(١) راجع دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية لعرفان عبد الحميد : ص ٢٢٦ ، وتعليق الأستاذ محمد فهر شقفه على كتاب الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد بن حنبل : ص ٧٢

(٢) راجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٣/٨٢

الأساس الرابع : إجراء الصفات على ظاهرها

الأساس الرابع الذي يقوم عليه مذهب السلف في أسماء الله وصفاته هو إجراؤها على ظاهرها .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : « حكى الخطابي وأبو بكر بن الخطيب وغيرهما أنَّ مذهب السلف إجراء أحاديث الصفات على ظاهرها »[1] .

ومراد السلف بإجرائها على ظاهرها هو الجزم بأن لها معنى حقيقيا يليق بجلال الله وكماله ، وهو المعنى الذي يظهر من اللفظ وفق ما تفقهه العرب من كلامها .

والمخالفون لمنهج السلف المقرر في هذا الأصل **ثلاث فرق** :

الأولى : الذين يجرون الصفات على ظاهرها ويجعلون ظاهرها من جنس صفات المخلوقين ، فهؤلاء المشبهة ، ومذهبهم باطل ، أنكره السلف وقبحوه ، وشنُّوا الغارة عليه وعلى أهله . وخطؤهم أنهم اعتقدوا أن الظاهر من الصفات هو التشبيه ، وكل من يعظم ربَّه ويقدسه يعلم أن ظاهر الصفات التقديس والتنزيه .

الثانية : الذين يزعمون أنه يجب نفي ظاهر الصفات ، لأن ظاهرها يفيد التشبيه ، ومن هؤلاء من ينفي جميع الصفات ، ولا يثبت لله إلا الصفات السلبية أو الإضافية ، أو المركبة من السلب والإضافة ، أما صفات ثبوتيه فلا .

وبعض هؤلاء أثبت بعض الصفات دون بعض ، فيثبت منها سبعا ، أو ثمانيا ، أو خمس عشرة ، أو يثبتون الأحوال دون الصفات ، وبعضهم يُقِرُّ بالصفات الخبرية الواردة في القرآن دون ما ورد في الحديث .

وهؤلاء قسمان : قسم يتأولونها ، ويُعيِّنون المراد مثل قولهم : استوى بمعنى استولى ، أو بمعنى علو المكانة والقدر ، أو بمعنى ظهور نوره للعرش ، أو بمعنى انتهاء الخلق إليه، إلى غير ذلك من معاني المتكلمين . وقسم يقولون الله أعلم بمراده منها ، ولكنا نعلم أنه لم يرد إثبات صفة خارجة عما علمناه .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٣٣/١٧٧

والفرقة الثالثة : القائلون بالوقف وهؤلاء **قسمان** :

الأول : الذين يقولون : يجوز أن يكون ظاهرها هو المراد اللائق بجلال الله ، ويجوز أن لا يكون صفة لله ، وهذه طريقة كثير من الفقهاء والمتكلمين وغيرهم .

والثاني : الذين يمسكون عن هذا كله ، ولا يزيدون على تلاوة القرآن وقراءة الحديث ، معرضين بقلوبهم وألسنتهم عن هذه التقديرات[1] .

وخلاصة القول في مذهب السلف في هذا الأصل : « أنهم يجرون أسماء الله وصفاته على ظاهرها ، موقنين أن المعنى الظاهر من هذه الأسماء والصفات هو معنى حقيقي يليق بجلال الله وكماله ، ولا يمكن أن يشابه هذا المعنى صفات المخلوقين ، ولسنا بحاجة إلى تأويل صفات الله بحال من الأحوال . »

وقد جلَّى شيخ الإسلام مذهب السلف في هذا فقال : « مذهب السلف إجراء أحاديث الصفات وآيات الصفات على ظاهرها ، مع نفي الكيفية والتشبيه عنها ، فلا نقول : إن معنى اليد القدرة ، ولا أن معنى السمع العلم ، وذلك أن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات ، يُحتَذى فيه حذوه ، ويتبع فيه مثاله ، فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا كيفية ، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود لا كيفية»[2] .

ويقول الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله تعالى : « مذهب أهل السنة والجماعة الإيمان بما ثبت في الكتاب والسنة من أسماء الله وصفاته لفظا ومعنى ، واعتقاد أن هذه الأسماء والصفات على الحقيقة لا على المجاز ، وأن لها معاني حقيقية تليق بجلال الله وعظمته ، وأدلة ذلك أكثر من أن تحصر .

ومعاني هذه الصفات ظاهرة معروفة من القرآن كغيرها لا لَبْسَ فيها ولا إشكال ولا غموض ، فقد أخذ أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنه القرآن ،

---

(١) راجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٥/١١٣

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٣٣/١٧٧

ونقلوا عنه الأحاديث ، لم يستشكلوا شيئا من معاني هذه الآيات والأحاديث لأنها واضحة صريحة ، وكذلك من بعدهم من القرون الفاضلة »[1] .

الرد على المفوضة

الذين يجرون الصفات على ظاهرها ، ويقولون علم معانيها إلى الله تبارك وتعالى ، ونحن لا نعرف معاني هذه الأسماء يسمون بالمفوضة .

ويَدَّعِي كثير من الباحثين في هذا الموضوع أنَّ مذهب المفوضة هو مذهب السلف الصالح .

والتحقيق أنَّ السلف لا يفوضون معاني الأسماء والصفات ، وإنما يفوضون في كيفية الصفات ، أمّا المعاني فإنها معلومة من لغة العرب .

والرد على المفوضة من وجوه :

١ـ أنَّ السلف الصالح ثبت عنهم تفسير معاني أسماء الله وصفاته وفق ما تفقهه العرب من كلامها ، ولم يثبت عنهم خلاف ذلك .

يدلك على صحة هذا أنَّ الإمام مالك قال في الإجابة عندما سئل عن كيفية الاستواء: الاستواء معلوم ، والكيف مجهول . والمراد بالمعلوم ، أي معلوم معناه .

٢ـ لو كانت الأسماء ألفاظا لا معاني لها لم تكن حسنى كما أخبر الحق تبارك وتعالى، ولا كانت دالة على مدح وكمال ، لأن حسنها باعتبار معانيها ، فأي حسن فيها إن لم يكن لها معاني[2] .

٣ـ ولو كانت ألفاظا لا معنى لها لساغ وقوع أسماء الغضب والانتقام في مقام الرحمة والإحسان وبالعكس ، فيقال : اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر لي ، إنك أنت الجبار المنتقم ، اللهم اعطني إنك أنت الضار المانع القابض .

---

(١) فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم : ١/ ٢٢٣ ـ قسم العقائد . مطبعة الحكومة بمكة المكرمة ١٣٩٩ هـ

(٢) التفسير القيم لابن القيم : ٢٨

٤ـ ولأنها لو كانت كما يقول النفاة لم يَجُزْ أن يخبر عن الصفة بمصدرها ، ويوصف بها كقوله تعالى : ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ [١] فالقوي من أسماء الله، ومعناه الموصوف بالقوة .

وكذلك قوله : ﴿ فلله العزة جميعا ﴾ [٢] . فالعزيز من له العزة ، فلولا ثبوت القوة والعزة له لم يسم قويًا ولا عزيزا .

٥ـ ولو لم تكن أسماؤه مشتملة على معان وصفات لم يسغ أن يخبر عنها بأفعالها.

فلا يقال : يسمع ويرى ويعلم ويقدر ويريد ، فإنَّ ثبوت أحكام الصفات فرع ثبوتها ، فإنَّ انتفى أصل الصفة استحال ثبوت حكمها .

٦ـ ولو لم تكن أسماؤه ـ تبارك وتعالى ـ ذوات معاني وأوصاف لكانت جامدة كالأعلام المحضة ، التي لم توضع لمسماها باعتبار معنى قام به ، فكانت كلها سواء ، ولم يكن فرق بين مدلولاتها وهذه مكابرة صريحة ، وبُهْتٌ بيِّنٌ ، فإن من جعل اسم « القدير » هو معنى اسم « السميع البصير » . ومعنى اسم « التواب » هو معنى اسم « المنتقم » ومعنى اسم « المعطي » هو معنى اسم «المانع» فقد كابر العقل واللغة والفطرة[٣] .

الأساس الخامس : الإجمال في النفي والتفصيل في الإثبات

ودلالة الكتاب والسنة على هذا الأصل الذي فقهه فقهاؤنا من سلفنا الصالح في غاية الوضوح ، ونظرة سريعة في كتاب الله تدلُّ دلالة بينة على صحة هذا المعلم .

فقد وصف الله نفسه في كتابه بأنه بكل شيء عليم ، وأنه على كل شيء قدير ، وأنه حي قيوم ، وأنه عزيزحكيم ، وأنه غفور رحيم ، وأنه سميع بصير ، وأنه يحبُّ

---

(١) سورة الذاريات : ٥٨

(٢) سورة فاطر : ١٠ .

(٣) التفسير القيم : ٢٩

المتقين والمحسنين والصابرين ، وأنه لا يحب الفساد ، ولا يرضى لعباده الكفر ، وأنه رضي عن المؤمنين ورضوا عنه ، وأنه يغضب على الكفار ويلعنهم ، وأنه يصعد إليه الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه ، وأنه كلَّم موسى تكليما .

هذا في الإثبات أما في النفي فإنَّه يجمل فيه ، كقوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء﴾ [1] وقوله : ﴿ فلا تجعلوا لله أندادا ﴾ [2] وقوله : ﴿ هل تعلم له سميا ﴾[3] وقوله: ﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾ [4] .

فبين في هذه الآيات أنَّ الله لا كفو له ، ولا ندَّ له ، ولا مثل له ، ولا سمَّي له .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « إنَّ الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ جاؤوا بنفي مجمل وإثبات مفصَّل ، ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ﴾ [5] فسبَّح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل ، وسلَّم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب ، وطريقة الرسل هي ما جاء به القرآن ، والله تعالى في القرآن يثبت الصفات على وجه التفصيل ، وينفي عنه على طريق الإجمال التشبيه والتمثيل »[6] .

والسر في الإثبات المفصَّل والنفي المجمل ، أنَّ النفي المحض الذي لا يستلزم إثباتا ليس بمدح ولا ثناء لأنه عدم ، والذي يكون به المدح والثناء والتمجيد والتعظيم هو صفات الإثبات ، فلا يثبت الله لنفسه صفة سلب إلا إذا كانت متضمنه لِثُبوتٍ كالأحد ، فإن هذه الصفة متضمنة لانفراده بالربوبية والألوهية ، وصفة السلام المتضمنة لبراءته من كلِّ نقص يضاد كماله .

---

(١) سورة الشورى : ١١

(٢) سورة البقرة : ٢٢

(٣) سورة مريم : ٦٥

(٤) سورة الإخلاص : ٤

(٥) سورة الصافات : ١٨٠ ـ ١٨٢

(٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٣٧/٦

وكذلك الإخبار عنه بالسلوب ، يَرِد لتضمن هذه السلوب ثبوتا ، فإنّ عامة ما وصف الله به نفسه من النفي متضمن لإثبات المدح ، فَنَفَى الحق ـ تبارك وتعالى ـ عن نفسه السِّنَةَ والنوم في قوله : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ (١) دليل على كمال حياته وقيوميته،وقد ورد في الحديث : « إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام » .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ ولا يؤده حفظهما ﴾ (٢) مستلزم لكمال قدرته وتمامها ، بخلاف المخلوق القادر إذا كان يقدر على الشيء بنوع كلفة ومشقة ، فإن هذا نقص في قدرته وعيب في قوته .

وكذلك قوله : ﴿ لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ﴾ (٣) فإن نفي العزوب مستلزم لعلمه بكل ذرة في السموات والأرض . وكذلك نفي اللغوب وهو التعب في قوله : ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾ (٤) مستلزم لكمال القدرة ونهاية القوة ، بخلاف المخلوق الذي يلحقه من التعب والكلال ما يلحقه .

هذا منهج القرآن في النفي ، فإذا كان النفي لا يستلزم ثبوتا فإنَّ الله لا ينفيه عن نفسه بمثل هذا التفصيل ، وإنما يدخل في النفي العام المجمل ، كقوله : ﴿ ليس كمثله شيء﴾ (٥) .

وهذا النهج وهو الإكثار من نفي الصفات « مع كونه لا مدح فيه ، فيه إساءة أدب ، فإنك لو قلت للسلطان أنت لست بزبال ولا كسّاح ولا حجّام ولا حائك ، لأدبك على هذا الوصف ، وإن كنت صادقا ، وإنما تكون مادحا إذا أجملت النفي ،

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٥

(٢) سورة البقرة : ٢٥٥

(٣) سورة سبأ : ٣

(٤) سورة ق : ٣٨

(٥) سورة الشورى : ١١

فقلت : أنت لست مثل أحد من رعيتك ، أنت أعلى منهم وأشرف وأجل ، فإذا أجملت في النفي أجملت في الأدب » [1] .

هذا هو المنهج الذي فقهه علماؤنا في النفي والإثبات في صفات الله ـ تعالى ـ إجمال في النفي وتفصيل في الإثبات ، أما أصحاب المنهج الفلسفي الكلامي فقد أُغْرِموا بالنفي المفصل ، والإجمال في الإثبات فتراهم يقولون في الله : « ليس بجسم، ولا شبح ، ولا جثة ، ولا صورة ، ولا لحم ، ولا دم ، ولا شخص ، ولا جوهر ، ولا عرض ، ولا بذي لون ولا رائحة ولا طعم ، ولا بذي حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة ، ولا طول ولا عرض ولا عمق ، ولااجتماع ولا افتراق ، ولا يتحرك ولا يسكن ولا يتبعض ، وليس بذي أبعاض وأجزاء وجوارح وأعضاء ، وليس بذي جهات ، ولا يمين ولا شمال وأمام وخلف وفوق وتحت ، ولا يحيط به مكان ولا يجري عليه زمان ، ولا يجوز عليه المماسة ، ولا العزلة ، ولا الحلول في الأماكن ، ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حدوثهم ، ولا يوصف بأنّه متناه ، ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب في الجهات وليس بمحدود ، ولا والد ولا مولود ، ولا تحيط به الأقدار ، ولا تحجبه الأستار ، إلى آخر ما نقله أبوالحسن الأشعري ـ رحمه الله عن ـ المعتزلة » [2] .

وقد تنبه علماؤنا إلى أن الذين يصفونه بالصفات السلبية على جهة التفصيل لا يثبتون لله إلا وجودا مطلقا لا حقيقة له عند التحري والتدقيق ، وإنما يرجع إلى وجود في الأذهان ، يمتنع تحقيقيه في الأعيان .

فإذا قيل في الأحاجي : ما الشيء الذي ليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ولا لحم ولا يصعد ولا ينزل ولا يتكلم ... الخ لقيل هو المعدوم .

وبذلك فرَّ هؤلاء بهذا المنهج الذي سلكوه من تشبيه الباري بالموجودات إلى

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية :ص ١٠٩ ، وراجع :مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٣/٣٥ ،وبدائع الفوائد ، لابن القيم : ١/ ١٦١

(٢) شرح العقيدة الطحاوية : ١٠٩

تشبيهه بالمعدومات ، والذين سلبوا عنه النقيضين شبهوه بالممتنعات .

ولو التزموا بالمنهج القرآني النبوي في إثبات أسمائه وصفاته على الوجه اللائق به ـ تبارك وتعالى ـ إثباتا من غير تمثيل ، لما وصلوا إلى هذا الدرك الهابط من التفكير .

يقول شيخ الإسلام : « قد علم بصريح المعقول أن المطلق بشرط الإطلاق لا يوجد إلا في الأذهان ، لا في الأعيان ، وأن المطلق لا بشرط لا يوجد في الخارج مطلقا ، لا يوجدإلا معينا ، ولا يكون الرب عندهم حقيقية مغايرة للمخلوقات ، بل إما أن يعطلوه أو يجعلون وجوده وجود المخلوقات أو جزءها أو وصفها والألفاظ المجملة يكفون عن معناها »[1].

الأساس السادس : الوقف في أسماء الله وصفاته

أحد المعالم البارزة في باب أسماء الله وصفاته عدم تسمية الله بما لم يسم به نفسه، أو يسمِّه به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يصفونه إلا بما وصفته به النصوص ، وهذا عائد لأمور :

الأول : أن مخالفة هذا المنهج قول على الله بغير علم ، ورجم بالغيب ، وقد حرَّم الله هذا ، وعده من الجرائم العظام ، وإذا كان البشر لا يرضون أن يسَمّوا بغير أسمائهم فكيف يجوز هذا في حق خالق البشر .

الثاني : أن مخالفة هذا النهج تقديم بين يدي الله ورسوله ، وقد نهينا عن التقديم بين يدي الله ورسوله ، وكيف يجيب العبد إذا حاسبه ربّه يوم القيامة عن وصفه ـ تبارك وتعالى ـ بما لم يصف به نفسه .

الثالث : أن أسماء الله ـ تبارك وتعالى ـ حسنى ، ومهما اجتهد العبد فإنه قد لا يوفق للتعرف على الاسم الأحسن الذي يستحقه الربُّ تبارك وتعالى .

يقول ابن القيم رحمه تعالى : « لله من صفة الإدراكات العليم الخبير دون العاقل الفقيه ، والسميع البصير دون السامع والباصر، ومن صفات الإحسان : البر الرحيم

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام : ٣٨/٦

الودود ، دون الرفيق والشفيق ونحوها ، وكذلك العلي العظيم دون الرفيع والشريف ، وكذلك الكريم دون السخي ، والخالق الباري المصور دون الفاعل الصانع المشكل، والغفور العفو دون الصفوح الساتر»[1] .

وأكثر من هذا قد يتوهم بعض الفطناء أسماء حسنة يجوز اطلاقها على الله وهي ليست كذلك ، مثل العارف والعاقل والفطن . يقول ابن بدران : «لا يجوز تسميتة بالعارف ، لأن المعرفة قد يراد بها علم تسبقه الغفلة ،كما لا يجوز اتصافه بالعقل ، لأن العقل علم مانع عن الإقدام على مالا ينبغي ، مأخوذ من العقال ، وإنما يتصور هذا المعنى فيمن يدعوه الداعي إلى مالا ينبغي .

ولا يجوز اتصافه تعالى بالفطن ، لأن الفطنة سرعة إدراك ما يراد تعريضه على السامع ، فتكون مسبوقة بالجهل .

لقد فقه علماء أهل السنة والجماعة هذه القضية ، فقالوا : إن أسماء الله وصفاته توقيفية ، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى : « ما يطلق على الله في باب الأسماء والصفات توقيفي »[2] .

وقال ابن حجر العسقلاني : « قال الفخر : المشهور عن أصحابنا أنها توقيفية...، وقال أبو القاسم القُشيْرِي : الأسماء تؤخذ توقيفا من الكتاب والسنة والإجماع»[3] ، وقال السفاريني في منظومته « الدرة البَهية » :

لكنها في الحق توقيفية   لنا بذا أدلــة وفــية .

وقال في شرحه لدرته البهية : « الجمهور منعوا إطلاق ما لم يأذن به الشرع مطلقا، وجوّزه المعتزلة مطلقا ، ومال إليه بعض الأشاعرة كالقاضي أبي بكر الباقلاني، وتوقف إمام الحرمين الجويني ...، واحتَجّ للقول المعتمد بأنها توقيفية بأنه لا

(١) بدائع الفوائد : ١/ ١٦٨
(٢) بدائع الفوائد : ١/ ١٦٢
(٣) فتح الباري : ١١/ ٢٢٣

يجوز أن يسمى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما ليس من أسمائه ، فالباري أولى»[1] .

وقال عبد القاهر البغدادي : « مأخذ أسماء الله تعالى التوقيف عليها ، إما بالقرآن وإمّا بالسنة الصحيحة ، وإما بإجماع الأمة عليه ، ولا يجوز إطلاق اسم عليه من طريق القياس .

وهذا خلاف قول المعتزلة البصرية في إجازتها إطلاق الأسماء عليه بالقياس .

وقد أفرط الجبائي في هذا الباب حتى سمى الله مطيعا لعبده إذا أعطاه مراده ، وسماه مُحْبِلا للنساء إذا خلق فيهنّ الحَبَل ، وضللته الأمة في هذا الجسارة التي تورث الخسارة»[2] .

وذكر ابن حجر العسقلاني أن المعتزلة والكرامية خالفوا أهل السنة فقالوا : « إذا دلّ العقل أن معنى اللفظ ثابت في حق الله جاز إطلاقه على الله ، وقال القاضي أبو بكر والغزالي : الأسماء والصفات توقيفية »[3] .

والمراد بالتوقيف في أسماء الله وصفاته :

١ـ أن يُقْتَصَر في هذا الباب على ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ، وكذلك في باب الأسماء ، ويُنْفَى عنه كل ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : « القول الشامل في جميع باب أسماء الله وصفاته أن يوصف الله بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله، وبما وصفه به السابقون الأولون لا يتجاوز القرآن والحديث .

قال الإمام أحمد رضي الله عنه : لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه ، أو

---

(١) لوامع الأنوار البهية للسفاريني : ١/ ١٢٤

(٢) الفرق بين الفرق : ص ٣٣٧

(٣) فتح الباري : ١١/ ٢٢٣

وصفه به رسوله لا يتجاوز القرآن والحديث »[1] .

٢ ـ لا يجوز أن نشتق لربنا أسماء مما أخبرنا الله به عن نفسه ، فلا يقال : إن من أسماء الله : المفتي والزارع والماكر والماهد والفالق أخذا من قوله تعالى : ﴿ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن﴾ [2] ، وقوله : ﴿ أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾ [3] ، وقوله : ﴿ ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ [4] ، وقوله : ﴿ والأرض فرشناها فنعم الماهدون ﴾ [5] ، وقوله : ﴿ إن الله فالق الحب والنوى ﴾ [6] .

يقول الصنعاني : « اختلف العلماء هل هي توقيفية ، يعني أنه لا يجوز لأحد أن يشتق من الأفعال الثابتة لله تعالى اسماً ، بل لا يطلق عليه إلا ما ورد به نص الكتاب والسنة»[7] .

ولا ينافي التوقيف اشتقاق المصدر والفعل من الأسماء الثابتة لله تعالى ، فالأسماء الثابتة للباري ـ تبارك وتعالى ـ كالسميع والبصير والقدير يطلق عليه منها السمع والقدرة ، ويخبر عنه بالأفعال من ذلك نحو قوله تعالى : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير﴾[8] ، وقوله : ﴿ فقدرنا فنعم القادرون ﴾ [9] .

وينبغي أن نعلم أن الإخبار عن الباري بالأفعال مما يثبت له من أسماء مقصور على

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : ٥/٢٦

(٢) سورة النساء ١٢٧

(٣) سورة الواقعة : ٦٣ ـ ٦٤

(٤) سورة الإنفال : ٣٠

(٥) سورة الذاريات : ٤٨

(٦) سورة الأنعام : ٩٥

(٧) سبل السلام : ٣/١٤٣

(٨) سورة المجادلة : ١

(٩) سورة المرسلات : ٢٣

الأفعال المتعدية فحسب ، فإن كان الفعل لازما لم يخبر عنه به ، نحو الحي يطلق على الباري منه الاسم والمصدر دون الفعل[1] .

٣ـ عدم جواز دعاء الله بغير أسمائه وصفاته الثابته بالكتاب والسنة ، يقول الزَّجَّاج فيما نقله عنه ابن العربي : « لا يجوز دعاء الله بما لم يصف به نفسه » .

وقد جعل ابن العربي الزيادة في أسماء الله من الالحاد المنهي عنه في قوله : ﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾ [2] . فقال : « والإلحاد يكون بالزيادة فيها ، والنقصان منها ، كما يفعله الجهال الذين يخترعون أدعية يسمون فيها الباري بغير أسمائه ، ويذكرونه بما لم يذكره من أفعاله ، إلى غير ذلك مما لا يليق به ، فحذار منها»[3] .

٤ـ اعتصامهم بألفاظ النصوص من الكتاب والسنة في باب أسماء الله وصفاته ، فلا يطلقون عليه ألفاظا محدثة مبتدعة ، كما فعل المبتدعة في هذا الباب .

يقول شارح الطحاوية رحمه الله تعالى : « التعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية النبوية الإلهية هو سبيل أهل السنة والجماعة ، والمعطلة يعرضون عما قاله الشارع من الأسماء والصفات ، ولا يتدبرون معانيها ، ويجعلون ما ابتدعوه من المعاني والألفاظ هو المحكم الذي يجب اعتقاده واعتماده ، وأمّا أهل الحق والسنة والإيمان فيجعلون ما قاله الله ورسوله هو الحق الذي يجب اعتقاده واعتماده »[4] .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الموضوع : « لم يدخل السلف والأئمة مع الطوائف فيما ابتدعوه من نفي وإثبات ، بل اعتصموا بالكتاب والسنة ، ورأوْا ذلك هو الموافق لصريح العقل ، فجعلوا كل لفظ جاء به الكتاب والسنة من أسمائه وصفاته حقًا يجب الإيمان به ، وإن لم تُعْرَفْ حقيقة معناه ، وكل لفظ أحدثه الناس

---

(١) راجع عقيدة السفاريني : ١/١٢٦

(٢) سورة الأعراف : ١٨٠

(٣) احكام القرآن لابن العربي : ٢/٨٠٥

(٤) شرح العقيدة الطحاوية : ١٠٩

فأثبته قوم ونفاه آخرون فليس علينا أن نطلق إثباته ولا نفيه ، حتى نفهم مراد المتكلم ، فإن كان مراده حقا قبلناه ، وإن كان باطلا مخالفا لما جاء به الكتاب والسنة من نفي أو إثبات منعنا القول به »[1] .

فالسلف الصالح يُحكّمون كتاب الله وسنة رسوله فيما أطلقته الفرق المنحرفة من أسماء وصفات على الله ، فلا يبادرون بقبوله ولا ردّه حتى يعلموا مراد قائله منه، فإذا ذكر معنى خطأ ردُّوه على صاحبه ، لمخالفته الكتاب والسنة ، وإن ذكر معنى حسناً قبلوه وأقرُّوه ، وقالوا لقائله : مرادك صحيح ، ولكن لا تستعمل هذه الألفاظ المبتدعة الموهمة .

فإن قيل : ما قولكم في من قال لنا : هل الله شيء أو ليس بشيء ؟ وهل الله موجود أو معدوم ؟ وهل الله قديم أومحدث ؟ وهل الله قائم بنفسه أو محتاج إلى غيره ؟ فهل يجوز أن نقول : إن الله شيء ، وموجود وقديم ، وقائم بنفسه ؟ فإن قلتم : نعم، خالفتم قاعدتكم ، وإن قلتم : لا ، قلتم قولا عظيما .

والجواب : أن قولنا بأنَّ الله شيء ، وقديم ، وموجود ، وقائم بالنفس هو من باب الإخبار ، لا من باب الصفات ، فباب الاخبار يتوسع فيه ، أما باب الصفات فيقتصر فيه على ما ورد ، يقول ابن القيم : « ما يطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي، وما يطلق عليه من الأخبار لا يجب أن يكون توقيفيا ، كالقديم والشيء والموجود والقائم بنفسه . فهذا فصل الخطاب في مسألة أسمائه ، هل هي توقيفية أو يجوز أن يطلق عليه منها بعض ما لم يرد به السمع »[2] .

أقول والأفضل في باب الاخبار أن يصار إلى اللفظ الوارد في الكتاب والسنة عند وجود مثل هذا اللفظ ، فنقول : الأول بدل القديم . ونقول : القيوم بدل القيام بالنفس ، ونقول : الآخر بدل الأزلي والأبدي، فالتعبير بالمنصوص أولى وأحرى .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٦/٣٦ ، ٣/٤١

(٢) بدائع الفوائد : ١/١٦٢

وهنا أمر آخر نبّه عليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ، وهو أنه لا يجوز أن يخبر عن الله ـ تبارك وتعالى ـ باسم سيء ، يقول رحمه الله تعالى : « ويفرق بين دعائه والاخبار عنه ، فلا يُدْعَى إلا باسم حسن ، أو باسم ليس بسيء ، وإن لم يُحْكَمْ مثل : اسم ، شيء ، وذات ، وموجود إذا أريد به الثابت ، وأما إذا أريد به الموجود عند الشدائد فهو من أسمائه الحسنى ، وكذلك المريد والمتكلم ، فإن الإرادة والكلام تنقسم إلى محمود ومذموم ، فليس ذلك من الأسماء الحسنى بخلاف الحكيم ، والرحيم ، والصادق ، ونحو ذلك فإن ذلك لا يكون إلا محمودا »[1] .

وقد يقال : تواتر النقل عن أهل العلم من المحدثين والمفسِّرين والفقهاء وغيرهم تفسيراتهم لأسماء الله وصفاته ، فكيف يستقيم القول بأنها توقيفية مع كثرة التفسيرات ؟

والجواب : كما يقول ابن القيم رحمه الله : « أنَّ أسماءه لا يقوم غيرها مقامها ، ولا يؤدي معناها ، وتفسيرها بغيرها ليس تفسيرا بمرادف محض ، بل هو على سبيل التقريب والتفهيم »[2] .

إطلاق لفظ الصفات على الله لا ينافي التوقيف . :

زعم بعض أهل العلم أن إطلاق لفظ « الصفات » على الله ـ تبارك وتعالى ـ ينافي التوقيف الذي جعله أهل السنة أحد الأسس الذي يقوم عليه معتقدهم في هذا الباب ، وقد ظنّ القائلون بهذا القول أن هذا الإطلاق مما جاء به المبتدعة ، ولم يأت به كتاب ولا سنة ، ولا نطق به سلف الأمّة .

وليس الأمر كما يقولون ، فقد جاء في كتاب الله قوله تعالى : ﴿ سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين ﴾[3] .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٦/١٤٢

(٢) بدائع الفوائد : ١/١٦٨

(٣) سورة الصافات : ١٥٩

فقد نزه نفسه عما وصفه به المشركون والضالون من صفات النقص والعيب ، واستثنى من ذلك ما وصفه به عباده المخلصون من صفات الجمال والجلال والكمال .

وفي صحيح البخاري عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث رجلا على سريّة ، وكان يقرأ لأصحابه في صلاته ، فيختم بقل هو الله أحد ، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صلي الله عليه وسلم ، فقال :« سلوه ، لأيّ شيء يصنع ذلك ؟ فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أخبروه أن الله يحبه»[1] .

والشاهد في الحديث أنَّ الصحابي قال : لأنها صفة الرحمن ، وأقرّه الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم ينكر عليه ، فلو كان هذا الإطلاق مما لا يجوز لأنكره عليه الرسول صلى الله عليه و سلم .

وجاء في شرح ابن حجر للحديث السابق الذي أورده البخاري ما نصه : « في الحديث حجة لمن أثبت أن لله صفة ، وهو قول الجمهور »، وشذَّ ابن حزم فقال: «هذه لفظة اصطلح عليها أهل الكلام من المعتزلة ومن تبعهم ، ولم تثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا عن أحد من أصحابه ، فإن اعترضوا بحديث الباب فهو من أفراد سعيد بن أبي هلال ، وفيه ضعف ، وعلى تقدير صحته(فقل هو الله أحد) صفة الرحمن كما جاء في الحديث ، ولا يزاد عليه ، بخلاف الصفة التي يطلقونها ، فإنها في لغة العرب لا تطلق إلا على جوهر أو عرض »[2] .

وعقَّب ابن حجر في رده على ابن حزم قائلا :سعيد متفق على الاحتجاج به ، فلا يلتفت إليه في تضعيفه . وكلامه الأخير مردود باتفاق الجميع على إثبات الأسماء الحسنى . قال الله تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾[3] .

والأسماء المذكورة فيها بلغة العرب صفات ، ففي إثبات أسمائه إثبات صفاته ،

---

(١) انظر فتح الباري : ١٣/٣٤٨

(٢) فتح الباري : ١٣ / ٣٥٦

(٣) سورة الأعراف : ١٨٠

لأنه إذا أثبت أنه حي مثلا فقد وصفه بصفة زائدة على الذات وهي صفة الحياة ، ولولا ذلك لوجب الاقتصار على ما ينبئ عن وجود الذات فقط[1] .

الأساس السابع
ترك البحث في حقيقة الذات الإلهية والصفات التي تستحقها

إنَّ ذات الله ـ تبارك وتعالى ـ ليس كمثلها شيء ، وكذلك صفاته تبارك وتعالى ، فالكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات ، وإذا كانت الذات لا يعلم كنهها وحقيقتها فكذلك الصفات لا يعلم كنهها وحقيقتها ، ومصداق ذلك في كتاب الله قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾[2] .

ومن هنا منع الذين فقهوا المنهج القرآني السؤال عن الله وصفاته بكيف ، لأن حقيقة الذات والصفات لا يمكن أن تعلم ، فلا يقال : كيف الله ؟ ولا كيف استوى ؟ ولا كيف علمه وسمعه وبصره ؟

وهذا لا يقضي نفي الصفة وقد أشار الحق إلى هذه الحقيقة بقوله : ﴿ ولا يحيطون به علما ﴾[3] ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه ﴾[4] فرؤية الله في الآخرة ممكنة، ولكن الإحاطة بالله منفية ، وإدراك معنى العلم ممكن ، ولكن الإحاطة بعلم الله غير ممكنة .

وقد نهى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن التفكر في ذات الله ، وأمر بالتفكر في خلق الله ، ففي الحديث : « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله»[5]، وفي الحديث الآخر : « تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله »[6] .

---

(١) فتح الباري : ١٣/٣٥٧

(٢) سورة الشوري : ١١

(٣) سورة طه : ١١٠

(٤) سورة البقرة : ٢٥٥

(٥) صحيح الجامع الصغير : ٣/٩

وهو بذلك يريح الفكر الإنساني من الخوض في مجال لا يحسنه ، ولا يستطيع أن يدركه . وسئل سهل بن عبد الله التستري عن ذات الله فقال : « ذات الله موصوفة بالعلم ، غير مدركة بالإحاطة ، ولا مرئية بالأبصار في دار الدنيا ، وهي موجودة بحقائق الإيمان ، من غير حدّ ولا إحاطة ولا حول ، وتراه العيون في العقبى، ظاهرا في مُلْكِه وقدرته ، وقد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته ، ودلهم عليه بآياته ، فالقلوب تعرفه ، والعيون لا تدركه ، ينظر إليه المؤمن بالأبصار ، من غير إحاطة ولا إدراك نهاية»[1] .

وقال أبو جعفر الطحاوي في العقيدة التي تنسب إليه : « لا تبلغه الأوهام ، ولا تدركه الأفهام ، ولا يشبه الأنام » .

وقال أيضا : « والرؤية حقٌّ لأهل الجنة بلا إحاطة ولا كيفية ، كما نطق به كتاب ربنا ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة ﴾ »[2] [3] .

الأساس الثامن :
عدم الإلحاد في أسماء الله وصفاته

الابتعاد عن الالحاد في أسماء الله وصفاته معلم بارز من معالم أهل السنة والجماعة في هذا الباب ، واتباع هذا السبيل هو تحقيق لما حذَّر الله منه في قوله : ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه ﴾ [4] وقوله : ﴿ إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا ﴾ [5] .

---

(٦) صحيح الجامع الصغير : ٩/٣

(١) شرح العقيدة الطحاوية : ص ١٧

(٢) سورة القيامة : ٢٢-٢٣

(٣) العقيدة الطحاوية : ص ٢٦

(٤) سورة الأعراف : ١٨٠

(٥) سورة فصلت : ٤٠

« والإلحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها ، وهو مأخوذ من الميل ، كما تدل عليه مادته : (ل ح د) . فمنه اللحد ، وهو الشق في جانب القبر ، الذي قد مال عن الوسط ، ومنه الملحد في الدين المائل عن الحق إلى الباطل . قال ابن السُّكَّيْتِ : الملحد المائل عن الحق ، المدخل فيه ما ليس فيه ، ومنه المُلْتَحَد ، وهو مفتعل من ذلك . وقوله تعالى : ﴿ ولن تجد من دونه ملتحدا﴾[1] . أي من تعدل إليه ، وتهرب إليه ، وتلجأ إليه ، وتبتهل إليه ، فتميل إليه عن غيره ، تقول العرب : التحد فلان إلى فلان إذا عَدَلَ إليه »[2] .

أنواع الإلحاد في أسماء الله وصفاته

الإلحاد في أسماء الله وصفاته ثلاثة أنواع :

الأول : التكذيب بأسماء الله أو ببعض هذه الأسماء كتكذيب المشركين باسم الرحمن ، قال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن ، قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا ﴾[3] .

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية : « أي لا نعرف الرحمن ، وكانوا ينكرون أن يسمى الله باسمه الرحمن، كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبي صلى الله عليه وسلم للكاتب : اكتب « باسم الله الرحمن الرحيم » . فقالوا : لا نعرف الرحمن ولا الرحيم ، ولكن اكتب كما كنت تكتب : باسمك اللهمَّ ، ولهذا أنزل تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾[4].

وقال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : « قل يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين

---

(١) سورة الكهف : ٢٧

(٢) بدائع الفوائد : ١/١٦٨ ، وراجع تفسير الطبري : ٩/ ١٣٤ وتفسير ابن كثير : ٣/ ٢٥٨

(٣) سورة الفرقان : ٦٠

(٤) سورة الاسراء : ١١٠

صفة الرحمة لله ـ عز وجل ـ المانعين من تسميته بالرحمن ﴿ ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ [1] أي لا فرق بين دعائكم له باسم الله أو باسم الرحمن ، فإنه ذو الأسماء الحسنى »[2] .

ومن هذا النوع من الإلحاد إلحاد الجهمية الذين نفوا عن الله أسماءه كما نفوا عنه صفاته ، ومنهم الذين عطلوا أسماء الله وصفاته عن معانيها وجحدوا حقائقها ، فقالوا: إن أسماء الله وصفاته ألفاظ مجردة لا تتضمن أية معاني ، فيقولون هو حي بلا حياة، وسميع بلا سمع ، وبصير بلا بصر ، ورحمن بلا رحمة .

الثاني : وصف الخالق بصفات الخلق ، فمن ذلك :

١ـ وصف الله بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص ، كقول خبثاء اليهود: ﴿ إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾[3] ، وقولهم : ﴿ يد الله مغلولة ﴾[4] ، وقولهم : إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام ، فتعب ، واستراح في اليوم السابع ، فأكذبهم الله في قوله : ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾[5] .

٢ـ تسمية الله ـ تبارك وتعالى ـ بأسماء الخلق ، كتسمية النصارى له أبا ، وتسمية الفلاسفة له موجبا بذاته ، أو العلة الفاعلة ، أو العقل الفعال .

٣ـ تشبيه صفات الله بصفات خلقه ، فالمشبهة يزعمون أن لله وجها كوجهنا ، ويدا كأيدينا ، واستواءً كاستوائنا .

الثالث : منازعة الباري في أسمائه وصفاته ، ووصف المخلوقات بما يختص به الخالق .

---

(١) سورة الاسراء : ١١٠

(٢) تفسير ابن كثير : ٥/ ١٦١

(٣) سورة آل عمران : ١٨١

(٤) سورة المائدة : ٦٤

(٥) سورة ق : ٣٨

فمن ذلك دعوى الألوهية والربوبية ، كقول فرعون طاغية مصر لقومه ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ [1] ودعواه بأنه ربهم الأعلى في قوله : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ [2] .

ومن ذلك تسمية المشركين أصنامهم بأسماء الله تعالى ، فقد ذكر ابن عباس وابن جُرَيج ومجاهد أن المشركين عدلوا بأسماء الله تعالى عما هي عليه ، فسموا بها أوثانهم ، فزادوا ونقصوا ، فاشتقوا اللات من الله ، والعزى من العزيز ، ومناة من المنان .

ومن هذا تسمية بعض المسلمين أبناءهم بأسماء الله تبارك وتعالى ، فيسمونهم باسم عزيز ، وجبار ، وقد يشتقون لهم أسماء من أسماء الله ، مثل عزات ، فإنه مشتق من العزيز .

---

(١) سورة القصص : ٣٨

(٢) سورة النازعات : ٢٤

المبحث الثالث
الأدلة على أن ما ذكرناه في المبحث السابق هو معتقد السلف

قد ينازع بعض الذين ينسبون إلى الإسلام في أنَّ الذي نقلناه عن الأئمة الأعلام هو معتقد السلف في أسماء الله وصفاته ، ويقولون : ما دليلكم على ما قررتموه؟

ويمكننا أن نستدل على إجماعهم واجتماعهم على هذا المعتقد بأدلة منها :

الأول : نَقْلُ السلف لنصوص الأسماء والصفات من غير تكذيب بها كما فعل قوم ، ومن غير تشبيه لصفات الخالق بصفات المخلوق ، كما فعل آخرون ، ومن غير تحريف وتأويل لها كما فعل فريق ثالث .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية موضحا هذا الاستدلال : « والدليل على أن هذا مذهب السلف أنهم نقلوا إلينا القرآن العظيم ، وأخبار رسول الله ـ صلى الله عيله وسلم ـ نقل مصدق لها ، مؤمن بها ، قابل لها ، غير مرتاب فيها ، ولا شاك في صدق قائلها ، ولم يفسروا ما يتعلق بالصفات منها ، ولا تأولوه ، ولا شبهوه بصفات المخلوقين، إذ لو فعلوا شيئا من ذلك لنقل عنهم ، ولم يجز أن يكتم بالكلية ، إذ لا يجوز التواطؤ على كتمان ما يحتاج إلى نقله ومعرفته ، لجريان ذلك في القبح مجرى التواطؤ على نقل الكذب وفعل ما لا يحل .

بل بلغ من مبالغتهم في السكوت عن هذا : « أنهم كانوا إذا رأوا من يسأل عن المتشابه بالغوا في كفه ، تارة بالقول العنيف ، وتارة بالضرب ، وتارة بالإعراض الدالِ على شدّة الكراهة لمسألته »[1] .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٣/٤

الثاني : استدلالهم بالنصوص على صحة الأصول التي قام عليها هذا المعتقد ، وقد مرَّ معنا كثير من هذه الاستدلالات .

الثالث : نقل نصوص كلامهم المتفقة في معانيها على النصّ على الأصول التي ذكرناها ، وقد نقلنا جملة من كلام السلف في هذا ، وإن شئت أن تطلع على المزيد من أقوالهم فارجع إلى المدونات التي نقلت هذه الأقوال .

الرابع : إخبار الثقات العارفين بأقوال السلف والعالمين بأقوال الغابرين من المستقيمين والمنحرفين على أنَّ هذا هو معتقد السلف لا يختلفون عليه .

يقول محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة : « اتفق الفقهاء كُلهم من الشرق والغرب، على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفات الرب ـ عزّ وجل ـ من غير تفسير ، ولا وصف ولا تشبيه، فمن فسر شيئا من ذلك فقد خرج مما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، وفارق الجماعة ، فإنهم لم يصفوا ، ولم يفسِّروا ، ولكن آمنوا بما في الكتاب والسنة ، فمن قال بقول جَهْم فقد فارق الجماعة»[1] .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن حكى مذهب السلف في أسماء الله وصفاته :« على هذا مضى السلف كلهم ، ولو ذهبنا نذكر ما اطلعنا عليه من كلام السلف في ذلك لخرجنا عن المقصود في هذا الجواب . وقد ثبت ما ادعيناه من مذهب السلف رضوان الله عليهم بما نقلناه عنهم جملة وتفصيلا ، واعتراف العلماء من أهل النقل كلهم بذلك ، ولم أعلم عن أحد منهم خلافا في هذه المسألة »[2] .

وقد بين شيخ الإسلام أنه لم ير بعد التحري التام ، ومطالعة ما أمكن من كلام السلف أحدا منهم يدلّ كلامه لا نصًا ولا ظاهرا على نفي الصفات الخبرية في نفس الأمر، وما رأى أحدا نفاها ، وإنما ينفون التشبيه ، وينكرون على المشبهة الذين

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٤/٧

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٥/١١١-١١٤

يشبهون الله بخلقه ، وينكرون على من ينفي الصفات ، كقول نعيم بن حماد ـ شيخ البخاري :« مَنْ شبَّه الله بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيها »[1]

وقال ابو عمر : « أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلّها في القرآن والسنة والإيمان بها ، وحملها على الحقيقة ، لا على المجاز ، إلا أنهم لا يكيفون شيئا من ذلك ، ولا يجحدون فيه صفة محصورة .

وأما أهل البدع من الجهمية والمعتزلة والخوارج فكلهم ينكرها ، ولا يحمل شيئا منها على الحقيقة ، ويزعمون أنَّ من أقرَّ بها مشبه ، وهم عند من أثبتها نافون للمعبود، والحق فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله ، وهم أئمة الجماعة والحمد لله »[2] .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٣٣/١٧٧

(٢) التمهيد لابن عبد البر : ٧/ ١٤٥

المبحث الرابع
خصائص المنهج السلفي

للمنهج السلفي الذي كان عليه الصحابة فمن بعدهم من أئمة الهدى خصائص تميزه عن غيره من المناهج والطرائق ، وإدراك هذه الخصائص ينير الطريق أمام الباحثين عن الحق في هذا الباب . وسنسوق في هذا المبحث أهم هذه الخصائص التى ظهرت لنا من خلال هذه الدراسة :

أولا : مذهب السلف هو المذهب الأكمل والأعلم والأسلم

مذهب السلف يمثل الفقه الأصيل لما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه فهو الحق الذي لا ريب فيه ، والنور الهادي إلى سواء السبيل ، وهو المنقذ من ظلمات الباطل ، وغياهب الشرك . وقد نازعهم أهل الانحراف عن الصراط المستقيم زاعمين أنهم أهل الهداية والاستقامة ، وسيأتي مزيد بحث في أحقية السلف بالمنهج الأمثل ، وتقرير أن مسارهم هو الأعلم والأسلم في خاتمة هذا البحث تحت عنوان : « منهج السلف في معترك الصراع » .

ثانيا : التوسط والاعتدال

السلف الصالح أهل التوسط والاعتدال في الأمور كلها ، وأعظمها باب الاعتقاد، فهم وسط بين المذاهب الجافية والمذاهب الغالية ، وهم في باب الأسماء والصفات وسط بين أهل التمثيل الذين شبهوا الله بخلقه وبين النفاة أهل التعطيل الذين عطلوا الباري عن صفاته .

يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى :« قولنا هو الوسط في فرق الأمة ، كما أن الأمة هي الوسط في الأمم ، فهم وسط في باب صفات الله بين أهل التعطيل الجهمية وأهل

التمثيل المشبهة »[1] .

ويقول السفاريني : « مذهب السلف من الفرقة الناجية بين التعطيل وبين التمثيل ، فلا يمثلون صفات الله تعالى بصفات خلقه ، كما لا يمثلون ذاته بذوات خلقه ، ولا ينفون ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، فيعطلون أسماءه الحسنى ، وصفاته العليا ، ويحرفون الكلم عن مواضعه »[2] .

والسر في هذه الوسطية أنَّ السلف استمسكوا بالحق الذي أنزل إليهم من ربهم ، والحق دائما وسط بين الافراط والتفريط وبين الغلو والتقصير .

أما الفرق الضالة عن الحق فهي دائمة التطرف ، وإذا تطرف فريق ظهر فريق آخر يقابله في الطرف الآخر ، فالجهمية بالغوا في نفي صفات الله تبارك وتعالى ، حتى أصبح وجود الباري عندهم ليس له حقيقة ، وإنما هو وجود ذهني فرضته عقولهم ، فجاء مقاتل بن سليمان وبالغ في إثبات الصفات حتى جسّم ، يقول الذهبي : « وظهر بخراسان الجهم ابن صفوان ، ودعا إلى تعطيل الرب عزَّ وجلَّ ، وخَلْقِ القرآن ، وظهر بخراسان في قبالته مقاتل بن سليمان المفسر ، وبالغ في إثبات الصفات حتى جسّم»[3] .

وزعمت الجهمية أن القرآن مخلوق ، فجاء ابن كلاَّب وتطرف في رده على المعتزلة ، وظنَّ أنه لا يستطيع دفع باطلهم إلا باعتقاد أن كلام الله تعالى معنى واحد قائم بذاته.

ثالثا : الاعتصام بالكتاب والسنة

أخص خصائص أتباع المنهج القرآني النبوي الذي اعتمده أهل السنة والجماعة هو الاعتصام بالكتاب والسنة استجابة لأمر الله ـ تبارك وتعالى ـ في

---

(١) العقيدة الواسطة لشيخ الإسلام : ص ٣٢ المكتبة السلفية – القاهرة ، الطبعة التاسعة ١٣٩٩ هـ

(٢) لوامع الأنوار البهية للسفاريني : ١/١١٦ .وراجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٥/٢٧

(٣) تذكرة الحفاظ ١٥٩ – ١٦٠ .واشار إلى هذا المعنى شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى : ٦/٣٥

قوله: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾[1] .

ولا شك أنَّ في الاعتماد على الكتاب والسنة عصمة للعقول من الضلال ، والنفوس من الزيغ ، والقلوب من الانحراف ، ولهذا كان علماؤنا يقولون : الاعتصام بالسنة نجاة ، قال مالك رحمه الله : « السنة مثل سفينة نوح ، من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها هلك »[2] .

فأهل الحق فقهوا معاني ما جاءهم من عند الله ، واعتمدوا على ما دلَّت عليه النصوص أو على ما استنبطوه منها ، لا على خيال فلسفي ، أو رأي أو قياس ، أو ذوق وجداني ، فأقامهم هذا المنهج على الصراط المستقيم الذي أمرنا الله باتباعه ﴿وأنَّ هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾[3] ، وَحكَمَ على الآخذين بما جاءهم من عند الله بالاهتداء إليه ، ومن يؤمن بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم .

رابعا : الطمانينة والسكينة التي يسكبها هذا المنهج في قلوب أصحابه

وهذه خاصية يعلمها من خالط القوم ، ونظر في علومهم ومؤلفاتهم وسيرهم ، فإن الناظر في ذلك كله يدرك ذلك الإيمان الراسخ والمعرفة الواضحة التي يمتاز بها علماء السلف الصالح .

والسر وراء ذلك أنَّ السلف الصالح هم أتباع المنهج القرآني النبوي ، ونصوص القرآن والسنة تقود أتباعها إلى اليقين والطمأنينة والسكينة ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾[4].

إن النفوس لا تثق بأقوال البشر ، وتبقى هذه الأقوال محل نظر وبحث ، فإذا كان الذي يقرر لها الحقائق الغيبية والعلوم الشرعية هو ربها ومعبودها وخالقها فإن

---

(١) سورة آل عمران : ١٠٣

(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٤/١٣٧

(٣) سورة الأنعام : ١٥٣

(٤) سورة الرعد : ٢٨

النفوس تخضع لقوله ، وتسكن للهدى الذي جاءها من عنده .

أضف إلى هذا أنَّ الباري ـ تبارك وتعالى ـ عليم بمداخل النفوس البشرية ، ولذا فإن القرآن إذا أقبل عليه العبد يورد على النفوس من البراهين والحقائق والمؤثرات ما يجعل النفوس توقن بصدق ما جاءها من عند الله .

ومن هنا نعلم أن دعوى الرازي وأمثاله من أن أدلة الكتاب والسنة لا تفيد اليقين ، ولا تفيد العلم دعوى باطلة ، تناقض ما يقرِّره الحق في كتابه والرسول صلى ـ الله عليه وسلم ـ في سنته[1] .

يحكي ابن تيمية أن أبا عبدالله الرازي وآخر من متكلمي المعتزلة دخلا على نجم الدين الكُبْرِي فقالا له : يا شيخ ، بَلَغَنَا أنك تعلم علم اليقين !

فقال : نعم ، أنا أعلم علم اليقين .

فقالا : كيف يمكن ذلك ، ونحن من أول النهار إلى الساعة نتناظر فلم يقدر أحدنا أن يقيم على الآخر دليلا ؟

فقال : ما أدري ما تقولان ، ولكن أنا أعلم علم اليقين .

فقالا له : صف لنا علم اليقين .

فقال : علم اليقين ـ عندنا ـ واردات ترد على النفوس ، تعجز النفوس عن ردها، فجعلا يقولان : واردات ترد على النفوس تعجز النفوس عن ردها ، ويستحسنان هذا الجواب[2] .

ولا شك أنَّ هذه الواردات التي ترد على النفوس تأتي عبر النظر في كلام الله وكلام رسوله ، والفقه عن الله وعن الرسول مرادهما ، وتأتي من خلال العمل بتوجيهات القرآن في عبادة الله وخوفه وتعظيمه .

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٤/١٠٤

(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٤/٤٣

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « كل من كان بالله أعرف ، وله أعبد ، ودعاؤه له أكثر ، وقلبه له أكثر ، كان علمه الضروري بذلك أقوى وأكمل »[1] .

ويقول : « ما أوتيه علماء أهل الحديث وخواصهم من اليقين والمعرفة والهدى أمر يجل عن الوصف ، بل عند عوامهم من اليقين والعلم النافع ما لم يحصل منه شيء لأئمة المتفلسفة المتكلمين[2] .

ومما يدلك على صحة ما نقول أنَّ السلف الصالح وأتباعهم أعظم الناس صبرا عند المحن والبلاء والشدائد ، فلا يرجع الواحد عن معتقده مهما حلّ البلاء بساحه ، وهذا حال الرسل ، وأتباع الرسل ، وكيف يرجعون عن الإيمان الذي منحهم الله إياه، بعد أن خالطت بشاشته القلوب ، وذاقت حلاوته النفوس ، بل كثير منهم يجدون في البلاء من الحلاوة والرضا والطمأنينة أضعاف أضعاف ما يجدونه عند الرخاء . وهذا حالهم أيضا عندما ترد عليهم الشبهات ، فإنهم يدفعونها باليقين والنور الذي تلقوه من الكتاب والسنة .

خامسا : التوافق والانسجام لا التناقض والاختلاف

ما أنزل من عند الله لا اختلاف فيه بحال من الأحوال ، ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾[3] .

والمؤمنون بالمنهج القرآني النبوي في باب أسماء الله وصفاته منهجهم يصدق بعضه بعضا ، فلا اختلاف ولا تناقض بين ما يُقَعِّدونه من قواعد ، وما يأصلونه من أصول ، وما يأتون به من تفاصيل ، بخلاف أصحاب المنهج الفلسفي الكلامي ، فإنهم متناقضون مضطربون فيما يقعدونه ويفصلون فيه ، ويتبين ذلك بعدة أمور :

١ــ دعواهم أنهم بنفيهم الأسماء والصفات ، أو نفي الصفات دون الأسماء

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٤/٤٥

(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٤/٢٩

(٣) سورة النساء : ٨٢

يريدون تنزيه الباري جلّ وعلا ، فهم يّدعون أن إثبات الأسماء والصفات ، أو إثبات الصفات يستلزم التشبيه والتمثيل ، ولم ينتبهوا إلى أنهم إذا نفوا عن الله ما وصف به نفسه من صفات شبهوه بالمعدومات ، ولما تنبه فريق من هؤلاء إلى الضلال الذي وقعوا فيه ، نفوا عنه النقيضين ، فقالوا : لا نقول إنه داخل العالم ولا خارجه ، ولا أنه عالم ولا جاهل الخ ، ولم يتنبهوا إلى أنهم شبهوه بالممتنعات ، وهكذا كل من حاد عن المنهج القرآني لا بدَّ أن يقع في التناقض والاختلاف .

٢ـ أصل الفلسفة عند أصحابها هو التشبه بالإله على قدر الطاقة ، ويجعلون هذا غاية الحكمة ونهاية الكمال الإنساني ، ويؤيدون هذا بما ينسبونه للرسول صلى الله عليه وسلم من قوله : « تخلقوا بأخلاق الله » وهذا باطل رواية ودراية ، أما رواية فليس لهذا الحديث أصل في كتب السنة ، وأمّا دراية فإن صفات الله لا تسمى أخلاقا ، ثم إنَّ بعض الصفات لا يجوز الاتصاف بها كالجبروت والعظمة والكبرياء[1] فكيف يدعو الفلاسفة إلى التشبه بصفات الباري ، وهم الذين يجتهدون كل الاجتهاد في نفى صفاته عنه ، أليس في هذا تناقض ؟ !!

٣ـ عمدة نفاة الصفات دعواهم أنّ العقل يحيل إثبات ما نفوه من الصفات ، فمن أنكر رؤية الله في الآخرة يزعم أن العقل يحيل رؤيته ، ولذا فإنَّه مضطر لتأويل النصوص الدالَّة على رؤية الله ، ومن يحيل أن لله علما وقدرة ، وأن كلامه غير مخلوق يَدَّعي الدعوى نفسها في إحالة العقل ذلك ، واضطراره إلى التأويل ، بل إنَّ الفلاسفة الذين أنكروا حشر الأجساد والأكل والشرب الحقيقي في الجنة يزعمون أن العقل أحال ذلك ، وأنه مضطر إلى التأويل .

وهؤلاء الذين اعتمدوا على إحالة العقل ليس لهم قاعدة مستمرة فيما يحيله العقل ، فإنَّ بعضهم يزعم إحالة العقل فيما يدعي غيره إيجاب العقل إثباته .

وعند التحقيق والنظر يظهر فساد قول هؤلاء فيما زعموا أنَّ العقل أحاله ، وما

---

(١) راجع شرح العقيدة الطحاوية : ص ٢٣ .

زعموا وجوب تأويله أخطؤوا في حكمهم ، فالنصوص التي أوّلوها لا تحتمل التأويل، والعقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح بحال .

٤ ـ إن أصحاب الكلام أكثر الناس انتقالا من قول إلى قول ، وجزما بالقول في موضع ، وجزما بنقيضه وتكفير قائله في موضع آخر ، وهذا دليل عدم اليقين ، ولذا فإن أصحاب الكلام كثيرو النزاع والاختلاف ، والفلاسفة أكثر منهم اختلافا ونزاعا.

وبسبب كثرة تناقضهم واختلافهم تراهم يكفّر بعضهم بعضا ، ويتبرأ بعضهم من بعض بخلاف أهل السنة .

يقول عبد القاهر البغدادي : « أهل السنة لا يكفر بعضهم بعضا ، وليس بينهم خلاف يوجب التبري والتكفير ، فهم إذن أهل الجماعة القائمون بالحق ، والله تعالى يحفظ الحق وأهله ، فلا يقعون في تناقض وتنابذ .

وليس فريق من فرق المخالفين إلا وفيهم تكفير بعضهم لبعض ، وتبري بعضهم من بعض كالخوارج ، والروافض ، والقدرية ، حتى إذا ما اجتمع سبعة منهم في مجلس واحد افترقوا عن تكفير بعضهم بعضا ، وكانوا بمنزلة اليهود والنصارى حين كَفَّرَ بعضهم بعضا »[1] .

سادسا : منهج ميسر في أسلوبه ومعانيه

الذي يطالع كتب الفلسفة وكتب علم الكلام التي تتحدث عن الله وأسمائه وصفاته يجد الأسلوب الذي صيغت به يتصف بالتعقيد والتخليط والجفاف ، وتكثر فيها المصطلحات الغريبة على الفكر الإسلامي ، وهذا النمط من الأساليب عندما تُعْرَضُ به العقيدة الإسلامية فإنّه يُذهب بهاءها ، ويُطفئ ضياءَها ، ولا يستطيع هذا الأسلوب أن يحمل المعاني التي جاءت بها نصوص الكتاب والسنة .

إنَّ الأسلوب القرآني يمتاز بالسهولة واليسر والبساطة والوضوح ، وهذا يجعل

---

(١) الفرق بين الفرق : ص ٣٦١

إدراك العقيدة سهلا ميسّراً لا للعلماء فحسب ، بل لكافة المستويات من الناس على اختلاف مداركهم وفطرهم ، يأخذ كلٌّ حسب طاقته من التفكير والإقناع ، بخلاف تلك الأساليب الفلسفيّة والكلاميّة المعقّدة المليئة بالمصطلحات ، إذ لا يدرك محتوياتها إلا القليل من الناس .

أضف إلى هذا أنَّ المضمون الذي تعرضه نصوص القرآن والحديث يخلو من التناقضات والمعارضات التي يوردها المتكلمون ، والتي يحطم بعضها بعضا ، ويزلزل اللاحق ما قرَّره السابق ، وعند ذلك تضلُّ العقول ، وتختل الموازين ، فلا تستطيع إدراك الحق من خلال سيول الشبه والمناقضات والمعارضات ، فيخرج دارسي هذا العلم من وراء دراستهم بالشبه والحيرة .

وقد أدرك الرازي هذا المعلم الذي يتصف به المنهج القرآني ، والذي خلا منه المنهج الكلامي ، فقال في وصيته التي أملاها على تلاميذه في مرض وفاته : « لقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم ، لأنَّه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ، ويمنع من التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات، وما ذاك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل في تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية .

ولهذا أقول : كلَّما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجوب وجوده ووحدته وبراءته من الشركاء في القدم والأزلية والفاعلية ، فذلك هو الذي أقول به وألقى الله تعالى عليه»[1] .

ومن هنا نصَّ العلماء على أنّه : « لا يجوز مخاصمة أهل الحق بإلقاء شبهات أهل الأهواء عليهم ، لأن في ذلك دعاء إلى الباطل ، وتلبيس الحقّ ، وإفساد دين الإسلام»[2] .

---

(١) هذا النقل مثبت عن الرازي في مقدمة محرر كتاب الرازي : اعتقادات فرق المسلمين : ص ٢٤

(٢) شرح العقيدة الطحاوية : ٣٥١